عاشــت حلــب

رواية

نور شحط

مواقف الرواية

* محطة الإهداء

* موقف لا بدّ منه

* فقرة الغلاف

* (1) الصور غير الواقع

* (2) السعادة من العطاء

* (3) القيمة في الوقت

* (4) الاسم يعني التميز

* (5) أي شيء بمقابل

* (6) لا بدّ من التغيير

* (7) المرايا النقية لا تكذب

* (8) لكل موقف نقطة توقف

* (9) الحياة بضعة قرارات

* (10) القوة تكمن في الإيمان

* (11) الصمت نصف الحقيقة

* (12) الحياة لا تقف عند موقف

رواية عاشت حلب

أهديها الى التراب الذي شرب من دم الشهداء

أهديها الى السماء التي عانقت أرواح الأبرياء

الى الشمس التي شهدت على صمود أهل حلب

أهديها الى العَلَم الذي نال مرتبة الشرف

إلى القلم الذي كتب حروفها حتى جَف

أهديها الى الذين طعنوا صدر الحّب بالراء

الى الحياة و الموت على حدٍ سواء.

موقف لا بد منه

عاشت حلب هي تشابك خيوط الواقع مع الخيال

وأي عُقَد ناتجة عنها ليست إلا محاولات سرد معاناة أهل حلب أثناء فترة الحصار على المدينة...

أتمنى تجاوز كافة المواقف برحابة فكر.

فقرة الغلاف

رغماً عن أنف الضجيج

وأنفاس التشويش المفخخة بالخذلان

هناك هسيسٌ داخلي الى القريب جداً

الى الحّب الذي تعثّر بي قبل فوات الأوان

شكراً لوجودك ولتضحك الذاكرة في حضورك

واعلم أني بغيابك لا أفقد سوى نفسي.

رواية عاشت حلب

الموقف الأول

الصور غير الواقع

تُولَد البدايات من رحم النهاية الى أن تَكبر وتشيخ لتعلن عن مخاض آخر لبداية جديدة، وها قد أطل علينا يوم جديد لا نعلم كيف نهايته! هل الموت مكتوب على أوراق دفاترنا؟ أم سنتابع مع الحياة؟!

أصبحنا وأصبح الملك لله، لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على كل شيئٍ قدير، لا يهم ما هو اليوم! إثنين، ثلاثاء أو أربعاء...

جميعها أيام في أسبوع والأسبوع في شهر والشهر في سنة والعمر يمضي... إلا أن اليوم الماضي كان له نكهة خاصة مليئة بالمرار، فكل لحظة مرت مساء الأمس كانت تخبرنا أن شيئا سيئًا سيحدث!

لقد انتهت ساعة العصر بكمية كبيرة من القلق والهلع لم نكن ندري إلى أين سيذهب بنا ذاك الخوف!

فهناك شخص من العائلة غائب ولم يصلنا منه أي خبر على أنه بخير!

ومع بزوغ الساعات الأولى من فجر هذا اليوم كان لنا مع الحقيقة موقف لم نعشه من قبل!

المشاهد القاسية تكون دائمًا مثبتة بدبوس حاد على جدار الزمن، بحيث نتألم حزناً مع كل تنهيدة.

شعور سيئ أن تفقد شخص عزيز عليك بشكل مؤلم دون أن تقوم بوداعه، كانت الصدمة كبيرة جدًا إلى حد تجمدت فيه الدموع بالرغم من لهيب الأحداث وسيطرة الذهول عليها، زوجتي انهارت من هول الفاجعة بينما أمي تيريزا غرقت في واحة الصمت.

لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، إن لله وإن إليه راجعون.

انتهت مراسم الدفن قرابة الظهيرة، ومع أشعة الشمس العمودية تختفي الظلال ولا وجود لأي احتمال سوى ما نعيشه على أرض الواقع.

منزل أهلي مزدحم بالجيران والأصدقاء، لقد أتوا حاملين معهم واجب العزاء لي ولعائلتي...

الأحداث التي توالت على المدينة بشكل سريع قطعت علينا حلم جميل عشنا داخله أحلى الأيام، نحن إلى اليوم لم نستوعب كيف كنا وإلى أين

وصلنا! أشياء كثيرة حصلت في الآونة الأخيرة جعلت كل المقاييس تتغير.

أن تمرّ بجانب صورة بوست إعلاني لأي مرفق على جدار أو في مجلة مختلف تماماً عن تجربته بكامل حواسك، كخطين متوازيين لا يلتقيان أبداَ! لأن كلاهما يحمل نفس الاسم ألا وهو خط مستقيم.

كذلك المواقف التي مررنا بها والتي ما نزال نتراقص ألماً من قسوتها تبصم بالعشرة أنّ الذي يده في الماء غير الذي يده في النار، فالموت قريب جدًا يلف ويدور حولنا في كل مكان من شوارع المدينة، حتى تحت سقف المنازل نراه أمامنا موجود في كل الأركان، يعيش معنا في كل نفس وحركة، صدر البيت له والعتبة للحياة.

عندما كنت مشغول في استقبال الناس وشكرهم على تقديم واجب العزاء، أخذت ذاكرتي تعود إلى الخلف، حيث أنّ متوالية الوقوف والجلوس لمرات متكررة جعلتني أعود إلى يوم أتت فيه بيسان إلى منزل أهلي وهي ترتعش باكية سألتها حينها:

- ما بك بيسان؟ لمَ كل هذا الخوف؟

كانت خائفة جدًا من فكرة ذهابي مع أهلي والسفر إلى مدينة القامشلي كي أطلب يدها للزواج بشكل رسمي والتعرف على عائلتها والأقرباء،

كانت تمتم بعبارات فهمت منها أن والدها قام على تحذيرنا من المجيء إلى المدينة... سألتها عن السبب فأجابت:

- لقد ثار غضب عمي عندما انتشر خبر زواجنا، ثم قام على تهديد والدي بقتلنا معًا إن رآنا في المدينة.
- ولِمَ يغضب عمك المصون؟
- كأنك لا تعرف السبب!

حينها قمت على تهدئتها بكأس من عصير الليمون المنزلي المثلج المطحون مع نبات النعناع الأخضر الذي بات من المشروبات المنقرضة حاليًا، ثم قام والدي بالاتصال مع أبي يونس رحمة الله عليه، ليتفق معه على إتمام أمور الزواج دون حضورهم، وذلك لدواعي أمنية لكلا الطرفين، على أن يُقام حفل زفاف بسيط ينهي القصة بلا مشاكل.

حزنت بيسان يومها كثيرًا على غياب أهلها لأهم مناسبة في حياتها، لكن لم يكن هناك حلّ مناسب سوى الذي كان آنذاك، إن مسألة اختلاف الأديان بين الطرفين ما تزال تشكل عائق كبير لبعض قصص الحب، لأن تقاليد مجتمعنا جعلت الزواج بين المذاهب المختلفة في ذات الدين من عجائب الدنيا فكيف إذن مع اختلاف الأديان!

هنا قد تحصل معارك وحروب غالبًا يذهب ضحيتها أصحاب العلاقة وحدهما وهما الشاب والفتاة، وعلى جميع الأحوال إنه لأمر طبيعي أن

تتعرض كل مسألة زواج لبعض المشاكل وعلى الطرفين التصرف بذكاء كي تنتهي بخير وسلام.

زوجتي بيسان تعتنق الديانة المسيحية وهي من العائلات السريانية المتواجدة بقلة في مدينة القامشلي، لكنها انتقلت إلى مدينة حلب من أجل دراستها الجامعية في كلية الآداب قسم لغة فرنسية.

لقد كان لقائنا الأول من خلال وجودي في ندوة ثقافية أُقيمت في كلية الآداب، إذ كانت بيسان من هيئة منظمي الحدث، حينها كنت واقفًا أمام باب القاعة مع صديقي عابد ننتظر شخص يستطيع مساعدتنا في دخول القاعة، لأن الندوة كانت مقتصرة على طلاب الآداب بأقسامها حصرًا...

يومها قام على نصحي أحد الزملاء الأساتذة بالذهاب إلى تلك المناسبة حيث قال لي وقتها:

- ها قد أنهيت دراستك في كلية الهندسة الميكانيكية بتقدير جيد، ثم تم تعيينك معيد محاضر فيها، وأصبح الوقت مناسب كي تتزوج ونفرح بك، العزوبية إن طالت على الشاب كفيلة بأن تجعل مشاعره باردة تجاه الزواج، وذلك يسبب خطر على المجتمع لا يحمد عقباه.

أجبته بحالة من الرضى:

- وما أنا بفاعل؟! لعلّ نصيبي لم يأتي بعد!
- اذهب يا زميلي إلى كلية الآداب
- ولم كلية الآداب تحديدًا؟
- الطالبات هناك يمتلكن شهرة واسعة من الجمال والأدب...

ضحكت في نفسي حينها ودغدغت البنت الفكاهية -إحدى بنات أفكاري- رأسي قائلة:

- وهل أكتب لك على ورقة مطلوب عروسة وأضعها على صدرك؟ ثم تقف على باب الكلية لتراقب القادمة والذاهبة!!

لكن الأستاذ تابع دون تباطؤ:

- هناك ندوة ثقافية ستحدث في كلية الآداب بعد يومين وسيكون طلاب السنة الأخيرة جميعهم، لن تخسر شيئا إن ذهبت!

وهذا ما حصل، ذهبت لألتقي مع القدر! فمنذ اقتراب بيسان نحونا شعرت أنه سيكون لي أيام جميلة مع تلك الإنسانة، إذ ظهرت أمامنا فجأة! ثم اقتربت نحوي موجهة السؤال لي:

- هل حضرتك طالب من كلية الآداب؟

طالما كنت أملك ملامح طفولية -بيبي فيس- فأنا معتاد على هذا السؤال، وما زلت لا أروي عدد سنوات عمري الحقيقي، فكل من يراني يحسبني أصغر بسنوات عديدة، بينما حاليًا تجاوزت الثلاثة والثلاثين...

إنّ أصحاب الملامح الطفولية قد لا يقومون على تقدير امتلاكهم عمر ثابت في مرحلة معينة من الشباب، لكن سوف يرون أن تلك الملامح نعمة كبيرة كلما تقدم بهم العمر.

كمية الغش التي امتلكها في عمري جعلتني أتجاهل سؤالها في ذلك الوقت لأطلب منها السماح بالدخول لحضور الندوة، وهي وافقت مرحبة بوجه بشوش، فتأكدت حينها أن ما شعرت به صحيح.

لكن صديقي العزيز عابد قطع شعوري الجميل، حين وكزني من خلف ظهري ليخبرني شيئًا رأيته وتجاوزته على الفور:

- إنها مسيحية يا صديقي، ألم ترى الصليب معلق في رقبتها؟

عابد عرف من نظراتي لها أني وقعت في شباك الحب، كيف لا! ونحن صديقان منذ بداية رحلتي على هذا الكوكب، يعرف طريقة تفكيري والمشاعر التي أعيشها دون أن أتفوه بأي كلمة.

تجاهلت تعليقه أيضًا، فقد دخلنا القاعة وجلسنا بالقرب منها، لتبدأ الندوة وتنتهي وأنا لم أكن هناك! لقد سافرت من حينها إلى بلاد بيسان بتذكرة ذهاب بلا عودة...

وبدأت بعدها لقاءاتنا المتكررة على أننا أصدقاء ثم ما لبثت أن تحولت الصداقة إلى حب تُوج بالزواج، لأننا في الحقيقة لم نضع اختلاف الدين عائق في طريق علاقتنا الجميلة.

عندما يتواجد الحب الصادق بين الأفراد تزول جميع الفوارق التي توجد في طبقات المجتمع.

والأجمل أن أبي يونس رحمه الله وأمي تيريزا لم يعارضان الزواج، بل قاما على منح ابنتهما بيسان المباركة بالرغم من معارضة أقربائهم والذي وصل إلى حد الخلاف معهم والمقاطعة!

ولذلك رسى القرار حينها على قيام حفلٍ بسيط في نادي المعلميّن ودعوة المقرّبين جداً من العائلة لمشاركتنا الفرحة، بعد أن تركنا موضوع حل خلاف أقرباء عائلة بيسان إلى الزمن.

الوقت كفيل في حل أكبر المشاكل، فكلما تمضي الأيام تأخذ معها كل شيء سيء، حتى الذكريات السيئة تذوب مرارتها مع مرور الأيام.

مكثنا في منزل إيجار مؤلف من غرفتين وصالة كائن في منطقة العزيزية، وهي منطقة قديمة تقع وسط المدينة تعتبر صلة وصل حيوية بين أحياء حلب القديمة التي تحيط بالقلعة وبين الأحياء الحديثة التي بنيت في منتصف القرن العشرين، كما تقع الحديقة العامة الأكبر في مدينة حلب على أطراف الحي من جهة الغرب وبجانبها محطة بغداد للسكك الحديدية والتي تعتبر من أقدم المحطات في حلب، حيث كانت رحلات السفر على أوجها بين بغداد وبرلين.

في الجهة المقابلة هناك مخفر العزيزية والذي يعد من أقدم مباني الحي، بسبب كون المنطقة عند نشأتها خارج حدود المدينة وأسوارها، قامت الحكومة العثمانية على بناء مركز أمني آنذاك، وكما يُقال يعود تسمية الحي إلى السلطان عبد العزيز العثماني.

يمتاز حي العزيزية بِالوحدة والتآخي حيث الجامع بجوار الكنيسة، والمباني فيه متلاصقة بجانب بعضها البعض، مما جعل من ساكنيه روح واحدة بالرغم من اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ففي كل مبنى تجد جميع مظاهر الاحتفالات السنوية سواء كانت تخص المسلمين منهم أو المسيحية، الأعياد تكون واحدة المشاعر واحدة والأفراح واحدة والآلام واحدة... وعدم القدرة على معرفة دين كل عائلة قاطنة في تلك المنطقة أمر عادي جدًا، إذ لا يمكن التمييز بينهم للوهلة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة... المحبة المزروعة في المنطقة لا يمكن اقتلاعها بسهولة أبدًا، لذلك تعد هذه الأرض خصبة بإمكانها أن تثمر أي شيء وفي كل وقت.

مما أدى إلى وجود نبع للأعمال المهنية المختلفة ومصب للصناعات المتعددة في المدينة، وهذه القيمة المادية العظيمة ليست بحديثة، حيث تعتبر مدينة حلب أقدم مدينة مأهولة ومحطة مهمة في الشرق الأوسط، كونها مارد الصناعة الأقوى في سورية وقلبها النابض بالخيرات...

إلى حين ركلت الفتنة أبواب المدينة وكسرّتها بحقد لم تعهده من قبل على مرّ التاريخ! لتدخلها عِنوة دون إستئذان، ثم فجأة انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب، وكأن كل ما كان حلم بات من الماضي!

لقد بدأت التفجيرات من الجهة الشرقية للمدينة ثم ما لبثت أن انتشرت بشكل عشوائي هنا وهناك، عمت معها الفوضى وعجّت السماء بالنيران وعلت أصوات القذائف وامتلأت الأرصفة والحدائق بالعائلات النازحة من المناطق المنكوبة بأعداد كبيرة، مما دعا إلى فتح المدارس وبيوت الطلبة الجامعية لإِوائهم، كون الطرف الشرقي من المدينة لم يعد آمنًا للعيش، حيث قامت على احتلاله جبهات وفصائل قتالية غريبة عن المدينة، عملت على بث الرعب والعنف بين الأهالي، فلم يعد خيار لديهم سوى ترك منازلهم وأرزاقهم من محلات ودكاكين والرحيل عن المنطقة سعيًا لطلب الأمان.

ولقد كان لحلب القديمة نصيب قوي من تلك الفوضى العارمة التي بدت في حرق أسواقها القديمة المحيطة بالقلعة بعد سرقة الموجودات والبضائع وتدمير كل ما هو قائم من مقاهي وفنادق ومنازل... مما أدى الى تشريد ساكني المنطقة إلى المناطق المجاورة.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى كانت مدينة حلب معزولة عن باقي المدن في المحافظات السورية، لقد حاصرتها جبهات المعارضة من

جميع الجهات واستولت على جميع المنافذ والمخارج المحيطة للمدينة، فقد أُغلق طريق مطار حلب الدولي والطرق الدولية والفرعية القديمة المؤدية الى حلب إلا طريقاً واحدًا باتجاه العاصمة دمشق (طريق قرية خناصر) لم يستطيعوا السيطرة عليه، فقد بقي مفتوحاً لإمداد المناطق الجنوبية والغربية للمدينة بالمواد الغذائية والأدوية والمحروقات، مما أدى الى ارتفاع الأسعار في جميع الموارد لصعوبة تأمينها وخطورة الحركة في ظل الأوضاع الراهنة.

كانت القذائف والنيران تنهال بشكل كثيف كزخِ المطر من الجهة الأخرى للمدينة، علّ وعسى تصيب هدف أمني أو موقع عسكري! إلا أنها كانت تضرب مناطق مدنية مأهولة بالسكان، و تدمر منشآت اقتصادية من مشافي ومؤسسات حكومية، حيث أن الجبهات القتالية كانت تريد السيطرة على الطرف الآخر للمدينة، لكن الرد عليهم كان بالمرصاد للدفاع عن المنطقة وحفظها من السقوط، حتى بات عراك أصوات القذائف وأزيز الرصاص مع صفير سيارات الإسعاف أمر طبيعي نصحو عليه كل يوم، هي سيمفونيات اعتدنا سماعها دون موعد لا تنتهي إلا بتصفيقٍ حار من الدمار والدماء...

كانت فرق الدفاع المدني المؤلفة من شباب وفتيات متطوعة في منظمة الهلال الأحمر تجوب الشوارع مع مكبرات الصوت تنادي على الناس:

"يا أهالي حلب إن كنتم في الشرق أو في الغرب، إذا سمعتم هديراً من السماء أو من أي صوب،عاجلوا في النزول إلى الملاجئ ... لا تترددوا! قد لا تحميكم المخابئ، لا تُعرضوا أنفسكم إلى خطر الموت، حافظوا على سلامة أرواحكم قدر الإمكان، حلب ستكون بحاجتكم وقت الأمان، اصبروا وصابروا مهما طالت المآسي والأحزان، لا تفقدوا الأمل والإيمان، في السلم أنتم أهل العز والمجد، في الحرب أنتم أهل الشموخ والصمود، أعانكم الله وحماكم من كل شر وخفف عليكم المحن والمصائب".

أثاب الله كل شخص قام على فعل الخير من خلال تلك المجموعة، لقد كان لها بصمة مميزة في كل مكان، استطاعت بالهمة والتصميم أن تمد أيادي المساعدة إلى أوسع نطاق، فلم يقتصر نشاطهم على المساعدة الطبية والبحث عن المفقودين بل شمل أيضا المساعدات الإنسانية والمادية لمن كان وضعه المادي سيئ، كون الكثير من العمال فقدوا عملهم بسبب توقف الآلات الصناعية عن العمل والدوران وإغلاق المعامل الصناعية والورشات الحرفية، حيث كان تأمين المواد الأولية صعب جدًا وعدم توفر المحروقات ليس سهل أبدًا، ما عدا الطرقات المؤدية إلى المعامل لم تعد آمنة وسلكها يشكل خطر فادح.

لكن للأسف كان هناك في الطرف المقابل خلايا نائمة معادية موجودة في نواحي المدينة، قامت على استغلال حاجة الناس للمال بعد فقدهم كل ما يملكون، فقامت على اغوائهم وتحريضهم على الخروج في مظاهرات مقابل مبلغ من المال... فبعض ضعاف النفوس كانت تدخل المدينة تجوب شوارعها لتهتف لنصف ساعة مقابل خمسمائة ليرة سورية أي عشرة دولارات وربما أقل ومن ثم تمضي!

أما حمل السلاح وقطع الطريق على طرقات الواصلة بين المدينة والقرى المحيطة لها صارَ عمل لمَن لا عمل له، بعدما تفجّرت أحاسيس بغيضة من غلّ وحقد مكنونَين إتجاه الطبقة الثرية، فكان لا بد من أصحاب رؤوس الأموال الهجرة الى الدول العربية المجاورة أو إلى تركيا لإعادة فتح مشاريعهم هناك، لا ألوم أحد منهم لذلك، لقد عانوا كثيراً من خطف ذويهم مقابل دفع فدية خرافية، وإن لم يُستجاب لطلب الجهة الخاطفة لا يمكن تخمين ما سيحصل من قطع أوصال المخطوف أو حرقه دون تردد وإرسال شريط مصور إلى أهله يؤكد ما أقدموا عليه، أو إيصال أشلاء المخطوف الى أهله بالمرسال المضمون مع توثيق الاستلام...

كذلك اعتلت موجة الانتقام والثأر أعلى حدّها مُغرقةً معها الصالح والطالح، فالقيد كله ضد مجهول! كل يوم نسمع عن حادثة اغتيال

لأشخاص تحت حجة الأخذ بثأر قديم، إلا أني أشك في ذلك لأن أهالي مدينة حلب لم يكن لديهم تلك العادات البالية، فقد كانوا يلجؤون إلى القضاء والقانون في فض مشاكلهم...

لكن ما حدث من فوضى في المدينة أدى إلى ظهور عصابات مرتزقة مهمتها القتل والتخريب والسرقة، من أجل نشر الخوف والهلع بين أهالي المدينة كي يتركوا منازلهم ومدينتهم ويرحلوا، وكان يزداد غضبهم وأعمالهم الوحشية المنافية لكل الأديان كلما تمسكت الناس بالصبر والإيمان من أجل البقاء في المدينة.

بين الحّب والحرب حرف أوقف التاريخ على بوابة الألم

بين الحّب والحرب شحطة قلم دفعَ ثمنها أبناء الوطن.

وأنا في خضم العراك ما بين الماضي والحاضر استنتجت أن لا شيء يدوم إن لم يتم احتوائه، وأن الصورة تبقى مختلفة عن الواقع مهما حاولنا إيجاد نقاط تشابه لا يمكن التطابق بينهما.

اقتربت ابنتي فرات ذات السبعة سنوات وعينيها تقطر حزنًا وألم تسأل: ماذا حصل لجدي يونس يا أبي؟ ماذا هنالك؟ ولم كل هذا الازدحام هنا يا أبي؟ أريد العودة إلى منزلنا، لقد اشتقت إلى اللعب مع جود وأخته... جود حزين جدًا، إنه يجلس وحيدًا في الغرفة يبكي، ما به يا أبي؟!

لم أنطق بكلمة واحدة، كل ما فعلته أخذتها باتجاه حضني و ضممتها بشدة إلى صدري كأني أحاول حمايتها من عبث الأيام القادمة!

الموقف الثاني

السعادة من العطاء

عدت إلى ذكرياتي مرة أخرى، تحديدًا إلى يوم أُعلن فيه انقسام حلب إلى قسمين، وحصول كل منهما على اسم يميز كل واحدة عن الآخرى، حلب الشرقية وحلب الغربية، الطرقات الواصلة بين المنطقتين مقطوعة، مما أدى إلى ضغط مضاعف علينا نحن سكان المنطقة الغربية وصعوبة في العيش وتأمين أبسط ما يمكن من ضروريات... لقد أصبح التواصل بينهما بمعابر ضيقة يمر منها الأفراد الذين يرغبون التنقل بين المنطقتين، وهذه المعابر خاضعة للتفتيش من كلا الطرفين،

وتكون مفتوحة في أوقات محددة يُعلن عنها حسب الحالة الأمنية لكلاهما.

كانت الحياة آنذاك تتجه نحو الموت البطيئ، كل يوم يموت شيء فينا دون أي ينزف منّا قطرة دم واحدة!...

في المنطقة الشرقية المواد الغذائية من خضروات، فاكهة، لحوم، ألبان وأجبان ... الخ، أكثر انخفاضاً بالسعر عن المنطقة الغربية التي نقطن فيها، لذلك فكرت ذات مرة أن أذهب الى هناك بعدما أخبرني جارنا أبو الجود أنه دخل تلك المنطقة منذ فترة وجيزة، تسوّق من داخل سوقها ثمَّ عاد بما لذَّ وطاب بأسعار منافسة عما يوجد في منطقتنا، أصابتني الشجاعة يومها لخوض تلك التجربة والصراحة تُقال أنّ الحماس نال مني لمعرفة ما يجول هناك من أمور وأحداث بالإضافة إلى رؤية الواقع بالعين المجرّدة من الروايات والأقاويل.

كان يوم الإجازة مناسب لتلك المغامرة كونه يوم عطلة رسمي في الدوام الجامعي، باقي الأيام ليست ملكي كي أفعل بها ما أشاء! هنا كل يوم له برنامجه الخاص به، بالرغم من أنه لا يملك طريقة محددة ليمضي بسلام! هي هكذا... نعلم أن شيئًا ما سيحدث لكننا لا نعلم أين ومتى وكيف؟!

ارتديت أقدم ما عندي من ثياب لتلك المهمة، وانتعلت حذاء رياضي مريح لضرورات الهروب الفجائي لا قدّر الرصاص والقذائف، كون الخط الفاصل بين المنطقتين عبارة عن حزام ناسف وقنابل موقوتة، مما جعل الشوارع القريبة منها متاهة تدخل فيها ولا تعرف هل ستخرج منها أم لا!

وطوال الطريق مبانٍ هجرها ساكنيها، مما حول الطوابق الأخيرة منها إلى ربوع خصبة قامت على استغلالها رجال قناصة من كلا الطرفين يصطادون الذبابة وهي تطير، مع العلم أنه وصلتنا أخبار عن قيام اجتماعات سرية يحصل فيها جلسات سمر ولعب ورق الشدة فيما بينهم عندما يريدون الاستراحة والترفيه عن النفس في أوقات الفراغ!

أما في حال تنفيذ الأوامر على تمشيط المنطقة يتحول الطريق إلى خط مشتعل يُلزم المرء بقطعه تارة بطريقة الوثب وتارة بوضعية الركض أو الزحف، كي يهرب من رصاصةِ قنّاص تُحلّق بلا هدف مُعين! المهم أن يكون عُنصر متحرك، وكأن القنص مُبرمج لذلك، كما نراها في الأفلام الهندية تمامًا، أنت الآن حقك رصاصة...

لطالما سقطت دائمًا في المصائد التي حاكتها لي بنات أفكاري، فكل واحدة منهن تعرف كيف تصل بي إلى الوقوع في الهدف، يعرفن في كل مرة متى يتفقن معي ومتى يتفقن ضدي! وهذه المرة كانت الفكرة

من ذهابي إلى الضفة الثانية، هي الحاجة إلى توفير أكبر قدر ممكن من المال مقابل دفع بعض الديون المستحقة للبقال، والتي باتت تشعرني بالخجل والقلق كلما مررت أمام دكانه!

الحاجة تجعلك تنفذ أفكار جنونية، لا منطق لها ولا مبرر... وكلما كانت الحاجة ملحة كانت الأفكار خطيرة وغير آمنة.

عندما وصلت معبر الجهة الشرقية قامت إحدى الفصائل وهي فئة من الشباب المرابطة عند البوابة بالتدقيق في بطاقتي الشخصية المهترئة، وبعدما تم التأكد بأنني غير مطلوب الى أي جهةٍ كونية وبأني شخص عادي برتبة مواطن ميؤوس منه سمحوا لي بالعبور، دخلت المنطقة المعنية بعد جهد جهيد وكنت مندهش لما رأيت ويا ليتني ما ذهبت!

الدمار العشوائي في كل الأنحاء، وكل حجر مررت به كان يحكي قصة تختلف عن الأخرى، الشوارع الوَعِرة لفظت ما في أحشائها من حصى وتراب، والأوساخ متناثرة على الطرقات لا مكان مخصص لها لتجتمع داخله، فكل حاويات القمامة مقلوبة لصنع حُجرات حماية مضادة، والسيارات محروقة كسحها السواد فبدت كقطعة فحم متحجرة، أما باصات النقل الداخلي فكانت مصفوفة فوق بعضها البعض لبناء جدار فاصل بين المنطقتين، بينما الأعلام السوداء الموزعة في كل زاوية وركن، أخبرتني بأنني على كوكب آخر لم تطأه قدمي بعد...!

رأيت رجال غريبة الملامح لا تشبه وجوهنا! دلت بأنهم من أصقاع العالم بأكمله، فبالرغم من لحاهم الطويلة استطعت أن أخمن من أين أتوا، بعضهم من العرق الأوروبي يملكون بشرة بيضاء وعيون ملونة وأجساد ضخمة لربما أتوا من ألمانيا أو الدنمارك.

وبعضهم من الطرف الآخر من الكرة الأرضية، من جهة وسط آسيا بلاد أفغانستان كازاخستان، لا أدري!

رأيت أيضًا أصحاب البشرة الداكنة الذين أتوا من جنوب أفريقيا أو ربما من أمريكا! كانوا جميعهم يكتحلون بالسواد ويضع كل واحد منهم حزام من الذخائر حول خصره، ويلف رأسه بوشاح مكتوب عليه اسم الجبهة القتالية المنسوب إليها...

إزدحام شديد من مختلف الأعراق، وكأنّ الكعبة الشريفة انتقلت الى هنا وأفواج الحجيج ترغب في أداء الفريضة...!!!

كان هناك لوحات متفرقة على مداخل الشوارع تدل كل واحدة منها على اسم الفصيلة المسيطرة في المنطقة، بالإضافة إلى العبارات المكتوبة على ما تبقى من الجدران، والتي تدعو للتحريض والتفرقة عبر دس السموم في نفوس الذين آثروا البقاء في منازلهم وعدم الرحيل لعدة أسباب أولها الخوف من فقد ما يملكون، فالكثير من أهالي هذه المنطقة عملوا بجهد وتعب طوال سنين حياتهم ليتمكنوا من شراء أو بناء منزل

صغير، وعندما حصلوا عليه صار الذي صار فلم يرغبوا بترك جهد عمرهم مهما بلغ الثمن.

كان الأطفال يتسابقون بين الأزقة حاملين بأيديهم عصي خشبية، والبعض منهم يلعب الكرة داخل ملعب صُنع من الحجارة المتساقطة هنا وهناك، ومنهم من كان يَعبث بأشياء خطيرة لا تخصّه كالأسلحة المنتشرة في كل مكان! فتلك المحظورات بمتناول الجميع بلا استثناء من كبير وصغير، ومن الخادم الى الأمير...

شعرت يومها أني في إحدى الألعاب الألكترونية أتنقل فيها كطفل سرق الشغف برائته ثمّ هرب... من الصعب جدًا نسيان ذاك اليوم فقد حزنت كثيرًا لما شاهدته في تلك المنطقة المنكوبة، لكن طلبات زوجتي حولتني حينها إلى رجل آلي مبرمج على عمل ما أنا قادم من أجله، فقد ملئت بيسان اللائحة بقائمة طويلة من الطلبات، وكلفتني أن آتي بما كتبته آملة بأن يكون كل الأشياء متوفرة هنا في المنطقة الشرقية.

لذلك توجهت سريعًا الى سوق الخضار والأغذية، لقد كانت أسعار السلع مدهشة جدًا لشدة انخفاض سعرها، يوجد فرق شاسع بين أسعار السلع المتواجدة في المنطقتين! حينها لم أستطع مقاومة هذا الإغراء فقمت باغتنام تلك الفرصة والاندفاع إلى شراء كل المتطلبات التي دونتها بيسان.

تركت السوق بعدما نفذ كل المال الذي كان بحوزتي، وامتلئت يداي بأكوامٍ من الأكياس المختلفة، لم أكن أقدر على حمل المزيد من الأغراض، بتُّ أسير كالبطريق أميل على جهة اليمن واليسار...

توجّهت الى المعبر قاصداً الخروج من المنطقة الشرقية لإتمام العملية عبر الولوج الى المنطقة الغربية، وإذ كان هناك طابور بشري طويل على مدّ ناظري، وصراخ من كلمات غير مفهومة يلّف الحشد بشريط من الأوامر، اقتربت أكثر لأجصّ النبض هناك...

عرفت أن اللجنة القيادية في المنطقة قررت لتوّها منع تسريب أي مادة غذائية بشكل نهائي، حيث قامت بمصادرة كل الحمولات العينية، وبالتالي ممنوع خروج أي شخص يحمل كيس واحد! والاعتراض لذاك الأمر يعتبر عصيان، وقد رأيت بأم عيني كيف اعترض أحدهم عند خروجه من باب المعبر حين أصر على أخذ مشترياته معه وحملها بعيدًا، حيث التف حوله عدد من المسلحين بينما قال له قائدهم:

- علي أن تقرر يا رجل، فأمامك خيارين...

إما أن تترك الأغراض كلها كما أتى الأمر أو سنضطر إلى اعتقالك وعدم السماح لك بالخروج من تلك المنطقة، ولا تسأل كم مدة الإعتقال! لأن هذا يتوقف على مدى استجابتك لتعاليم الدورة و...

وقبل أن ينهي كلامه كان الرجل قد ترك مشترياته أرضًا واختفى ذاهبًا إلى المنطقة الأخرى بقلب مكسور انتشرت شظاياه داخل صدره، واضعًا يده على روحه علّه يمسح جراحها!

نظرت حولي حينها وأنا ألف في أرضي 360 درجة...أتسائل ماذا أفعل بتلك الحمولة الغير مُرخصة ؟ كيف سأتخلّص منها بطريقة جيدة! كنت أبحث عن شخص أعطيه الأكياس بدلًا من رميها على الأرض، كنت أريد أن يستفيد منها أي أحد هو بحاجة لها، لكن دوري في التفتيش كان يدنو فرداً بعد فرد والوقت قارب على إغلاق باب المعبر!

ركنتُ بضاعتي إلى جانب الطريق ثم جلست القرفصاء، لم أكن أدري ماذا أفعل أو كيف أتصرف؟! وكالعادة كانت بنات أفكاري تلف حولي بلباسها الشرعي حاجبةً عني الرؤية الواضحة، وكل واحدة منهن تقذف بكلمة أو كلمتين: لائحة الطلبات، بيسان، المنطقة الغربية، الشرقية ، المعبر، جاء دورك، ذهب الراتب، الأكياس، قم، اذهب، لا تذهب....

وبينما كان رأسي يلف ويدور دنا من مسامعي صوت نسائي ينادي باسمي وكأنه نسمة من نسائم الجنة:

- أستاذ شريف ..... أستاذ شريف

تقدمت نحوي امرأة يكسوها السواد لم أعرفها بادئ الأمر، إلا أن صوتها لم يكن غريبًا عليّ! كنت أقف مدهوشًا، الصوت مألوف بينما

الشخص غامض، ثم بدأن بنات أفكاري عرض إحتمالات عليّ بمن تكون تلك الشخصية؟ لكن بناء على الصوت رجحت بأن تكون أم حسين التي تعمل في كافتيريا الجامعة، وقد أكدت لي قائلة عندما وقفت أمامي قائلة:

- أستاذ شريف أنا أم حسين ألم تعرفني؟
- عرفتك من صوتك، لكن لم أنت هكذا مكتسية بالسواد؟!
- هنا يأستاذ شريف غير مسموح بخروج النساء إلى الشارع إلا بهذا اللباس الذي تراه أمامك، بحيث لا يظهر شيء من معالمهنّ، وعندما أخرج من تلك المنطقة مبتعدة عنها أقوم بخلع هذا الزي... لكن قل لي لم أنت هنا؟! ماذا تفعل؟

لم أصدق حينها ما حصل! فقد أردت حل لمشكلتي قبل انتهاء الوقت، وها ذا الحل يقف أمامي... أذكر أني طلبت منها أن تأخذ الأغراض عني لما بدر من أوامر جديدة تمنع بإخراج أي منها، بل قمت بالإلحاح عليها كي تأخذهم لما تحمله أم حسين من عفة نفس كبيرة بالرغم من حاجتها لهم، فهي سيدة لم تطلب يومًا شيئًا من أي أحد حتى وإن كانت في أمس الحاجة له، حتى أني طوال سنوات عملي معيد في الجامعة لم تشتكي أو تتذمر من أي حالة سيئة تمر عليها، كانت تأتي لتعمل عملها بهدوء وترحل...

تلك العفة بكل معانيها نادرًا ما نراها حولنا أو ربما انقرضت ونحن مشغولون وراء كسب أكبر ما أمكن من أشياء مادية.

أخذت أم حسين الأكياس وكانت تقطر خجلًا قائلة لي:

- هذا كثير علينا يا أستاذ! سوف أقوم بتوزيع تلك الأشياء مع جيراني، أعرف أشخاص لا يملكون قوت يومهم وهم مصابون جسديًا لا يستطيعون العمل لكسبها...

أشكرك كثيرًا أستاذ شريف وعوضك الله بالأحسن.

شعرت بفرحة أم حسين على ما نالت من رزقٍ طيب في وقت الشدة، وفي الحقيقة أنا فرحتي كانت أكبر والله أكبر! ولكل امرئ نصيب من الدنيا لا بد أن يناله بعد حدوث السبب.

خرجت من المنطقة الشرقية بسلام ودعاء أم حسين يُحيط بي من كل جانب لم أكن أريد شيئًا منها سوى الدعاء...

وحده الدعاء في هذه الأوقات الحرجة يشفي جرح الروح ويقوي النفس، وخاصة إن كان من شخص أبدى اهتمامًا لك ولو بلحظة، وهذا يعتبر عامل مهم من عوامل نشر السعادة، ولكن للأسف لا يبالي به الكثيرون لأنهم يجهلون القيمة الثمينة للدعاء.

السعادة سلسلة من العطاء أولها اِبتسامة وَآخرها حلقة مفتوحة اليدين تدعو للخير والرضى.

عندما ابتعدت عن المعبر حاولت الإتصال مع بيسان عدة مرات لأخبرها ما حصل معي حتى لا تنصدم حال وصولي إلى المنزل وأنا فارغ من أي طلب كتبته في اللائحة، لكن الإِتصالات مزاجية في حلب، وحينها لم ينجح التواصل بيننا بشكل كبير بالرغم من دفع الفاتورة على دوز بارة! لقد سمعت صوتها آتٍ من جب عميق:

- ألو! شريف! هل انتهيت من شراء طلبات القائمة؟

بيسان سألتني عن المشتريات قبل أن تسأل عن سلامتي! هذا وإن دل دل على إمكانية تغيير قائمة الأولويات لدى أي شخص بحسب الظرف أو الموقف الذي يمر به... أما أنا فلم أستطع أن أعطيها أي جواب، فالخط انقطع قبل أن أتفوه بأي كلمة.

كنت أود إخبارها أن تُعد لي الحمّام الساخن إلى حين عودتي إلى المنزل، إذ كان لا بد أن أستحّم بعد رحلة السفاري تلك، لكن ياترى هل كانت ستعده بعدما تسمع فشل المهمة؟ أشك في هذا!

بعد انقطاع الكهرباء والماء بات الاستحمام بمياه نظيفة ساخنة صعبًا للغاية، فقد أصبح تحضيره يستغرق وقت وجهد كي يكون جاهز للمباشرة، إذ لا بد من وجوب تسخين المياه في طنجرةٍ كبيرة على فرن الغاز، ثمّ خلطها في جرن الحمّام مع مياه الوسط المتوفر، وَباستخدام الطاسة التراثية المصنوعة من النحاس والمنقوشة نقش يدوي بالزهور

والرسومات الناعمة نقوم بصب المياه والاستحمام بشكلٍ تقليدي قديم، وإن لم تتوفر الطاسة النحاسية بالإمكان استعمال علبة بلاستيكية.

ليست مشكلة أبدًا أن نستبدل أشياء بأشياء طالما يتم الحصول على ما نريد، المهم أن نعرف كيف نتأقلم مع كل الأوضاع كي نستطيع مواصلة العيش.

كان فصل الشتاء الماضي بارد جدًا، لا أعرف إن كان هو كذلك حقًا أم عدم توفر المحروقات من جهة والكهرباء من جهة أخرى جعله بارد بهذا القدر! فبعد تخريب المحطة الكهربائية الكبيرة ودمارها غرقت مدينة حلب في ظلامٍ دامس وبردٍ قارص، كون الكهرباء لها دور فعّال في الكثير من الأحيان في نشر الدفء عبر السخانات الكهربائية المشعّة، بالإضافة الى أنّ الحصار القائم على المدينة وإغلاق الطرقات الدولية جعل من تأمين مادة المازوت لأجل التدفئة أمر صعب جدًا مما ضاعف من سعر اللتر منه إلى حد لا يُطاق!

لم يبق سوى الغاز كي يكون المنازع القوي لتلك المهمة، ناهيك عن الطبخ الذي يلزم الغاز أيضًا مما حوله إلى مادة مطلوبة بشكل خرافي! بالرغم من أن طريقة الحصول عليه تعتبر سهلة فهي لا تتطلب سوى تسجيل الاسم ورقم الهاتف لدى مختار الحّي بموجب دفتر العائلة مع

إدراجه بِفيتامين واو (واسطه) إلا أنه قد يتأخر يوم توزيع الأنبوبات الممتلئة إلى أجلٍ غير مسمى!

وعند غياب الغاز لشهور طويلة لم يكن أمامنا سوى الحطب المنافس الأقوى لكل ما سبق، فهو مصدر متوفر في الشوارع وفي كل مكان.

كان مشهد الرجال وهي تقوم على تقطيع الأشجار المتواجدة على الرصيف عادي جدًا، وتكسير المقاعد الخشبية في الحدائق بغية حرقها داخل المدافئ من أجل نشر الدفء والطبخ عليها أمر لا نقاش فيه! لم يكن أحد يعترض على مسألة قطع الأشجار، فالبرد ظالم لا يرحم وتجّار الأزمات الذين يستغلون لهفة المواطن أظلم.

لكن في المقابل حصل شيء لم يكن في الحسبان، فقد ارتفعت أسعار المدافئ القديمة التي تعمل على الحطب إلى فوق الوصف بعدما كانت مرمية في المستودعات، أو أفضل ما هنالك كانت مجرد قطعة أثرية مركونة في إحدى زوايا الصالة.

لقد مر علينا أيام صعبة لا يمكن نسيانها بسهولة، ولا نعلم ما سيمر علينا من ظروف قادمة! هل نقدر تجاوزها كما تجاوزنا الذي قبلها؟! أم سنموت جميعًا بعد قليل؟!

كنت عائد إلى المنزل وأنا أجرّ ذيول الخيبة خلفي بعد الفشل الذريع الذي لحق بي جراء ذهابي إلى المنطقة الشرقية، دخلت إلى باحة شرود

واسعة، وصلت إليها بعدما ضاقت الحال عليّ وعلى الكثير مثلي من الطبقة العاملة، حال لم نمر عليها من قبل، الطبقة الوسطى أمست فقيرة والفقيرة باتت معدومة...

ومع ذلك كله هناك طبقة من المجتمع تعيش فوق الريح، عددهم قليل نعم ولكنهم موجودون بيننا وحولنا، قاموا على استغلال الوضع الراهن والسيطرة على السوق الاقتصادية من خلال احتكار البضائع الغذائية واللعب بأسعارها كما تهوى نفوسهم، لقد تخلوا عن ضمائرهم ومبادئهم مقابل جمع أكبر كمية من المال، لم يعد مهم لديهم مصدر المال، المهم أن يأتي بأي طريقة كانت.

انقطعت جولة شرودي قُبيل وصولي الى مدخل حيينا، حيث اِستوقفتني شابة هيفاء القوام شقراء اللون، يلف حولها خليط عطور من الفاكهة الإستوائية والفانيليا، وهو ينبعث من خصلات شعرها مسافة مترين و شبر، هذا النوع من العطور يكون بالعادة تعبئة في زجاجات صغيرة من ماركة تحمل اسم معروف جيدًا في حلب.

كانت تحمل بيدها مايك إذاعي ويُرافقها ظهور جماعي للمارة.... عرّفت عن نفسها بأنها من إذاعة بكرا أحلى!

لا أدري ما الذي جذبها اليّ من بين كلّ الحشود وأنا في حالةٍ رَثّة!

لطالما قالوا لي أني أملك كاريزما نادرة مرصّعة بالجاذبية المقنعة

والسحر الذي بمقدوره التأثير على الآخرين بالرغم من ملامح وجهي الطفولية، فلا أحد يمكنه مقاومة تعابير وجهي عندما أريد التكلم أو في حال كنت صامت، وذلك برأيي نعمة وهبة إلهية تجعلني في رتبة التميز... لكني في تلك اللحظة كنت مُحبط، لم أعِ تماماً ما الذي يدور حولي بعدما عدت خائب من رحلتي الصباحية، وكأني في فقاعة أمل كبيرة ما لبثت أن ارتفعت قليلاً ثم انفجرت لأسقط بعدها في مستنقعٍ من الأحلام الضحلة.

داهمتني البنت الجريئة (واحدة من بنات أفكاري) وأصرّتْ عليّ بالسماح لفتاة الإذاعة في تبادل الحديث معي بلسان كل حلبي عسى ولعلّ أن يصل الصوت عبر الأثير، فكان لها ذلك ...

اقتربت مني المذيعة لدرجة الالتصاق، ظننت للحظة أني واقف في باص النقل الداخلي! ثم وضعت المايك في فمي وبدأت بعملها قائلة:

- واحد ... اثنان ... ثلاثة .... تسجيل، اسمك لو سمحت؟
- مواطن عادي
- لونك ؟
- لوني رمادي
- ما هي أحلامك؟
- السلام والامان

- طلباتك؟
- بيتي والدكان!
- كيف الأوضاع؟

نظرت إليها بصمت، لم أعرف بما أجيب! عن أي أوضاع تتحدث؟

قامت بتغيير السؤال إلى سؤال ظننت معه أنها آتية من كوكب الزهرة:

- ماذا تأكل؟
- خبز يابس
- ما هو احساسك؟
- غاصص والنفس حابس
- كيف عايش؟
- عايش ومش عايش!
- ما هذه الرائحة الكريهة؟
- الماء مقطوعة والكهرباء ممنوعة!
- سؤال أخير...

حينها رفعت يدي بإشارة لها على نهاية اللقاء، فما نفع الكلام إن لم يكن هناك آذان صاغية؟! إلا أن جدتي رحمها الله كانت تقول: الكلمة كنقطة الماء، بإمكانها أن تحفر الصخر وتفتت الحجر مع مرور الزمن.

ذاك الحجر يا جدتي وليس البشر! التعامل مع البشر صعب جدًا، بل مرهق لدرجة تجعلك تنهار مستسلم مقابل أشياء تحبس أنفاسك!

تركت الحشود دون وداع بعد أن أفرغت القليل من جعبتي، فبعض بوح الألم الى شخصٍ غريب يعمل مفعول مخدّر لنفسٍ أنهكتها ضغط الحزن وعبء التفكير، التفكير في كيفية تأمين كل ما هو ضروري في ظرف لا يتوفر أي شيء منه إلا بشق الأنفس وطلوع الروح!

لم أكن أريد الرجوع إلى المنزل وأنا خالي اليدين من أي مادة غذائية مكتوبة في اللائحة، لم أكن أريد أن أرى الخيبة على وجه بيسان وأن ترى الخيبة على وجهي! كل ما أردته هو أن نأكل حبة بندورة، أن نتذوق طعم الجبن على الإفطار مع صحن من البيض المقلي، أن نأكل الزيتون بعد غياب وأن نطهو الفاصولياء الخضراء، أن أجلب لابنتي فرات إصبعين من الموز لا أكثر... لكن لا شيء من هذا حصل!

شارفت الشمس على المغيب بينما كنت أمشي متثاقل الخطى، أفكاري كانت مكبلة من كل جهة، شعرت حينها أني مقيد لا أستطيع أن أقوم بأي فعل وردة فعل، فكل طاقتي نفذت في ذاك اليوم ولم أعد أبالي بالغد!

لقد كان من الأفضل أن أكون متواجد في المنزل قبل قدوم الليل، الأوضاع الأمنية ليست جيدة وكل امرئ عليه أن يكون حارس شخصي على نفسه.

وصلت إلى البيت فارغ، فارغ اليدين، فارغ الأفكار، فارغ الأحلام، فارغ من المال، فارغ من الأمل من الصبر من الانتظار....

فارغ من كل شيء!

وما إن فتحت باب الدار حتى انهالت عليّ بيسان بزوبعة من الأسئلة بعدما رأت يدايَ خاويتَين من عناصر القائمة المطلوبة:

- أين كنت شريف؟ لمَ تأخرت؟ أين الطلبات؟ ما بك؟ ماذا حصل؟ لماذا لا تتكلم؟ ما القصة؟!

النساء يرغبن دائما في معرفة الأحداث دفعة واحدة، بينما الرجال نادرًا منهم من يريد التحدث! خبر واحد في اليوم يكفي مقابل أخبار العالم.

وبيسان لم تهدأ حينها إلى أن نالت مني كل تفصيل حدث معي في ذاك اليوم، ثم نظرت تجاه لهيب الشمعة المتراقص لتسألني من جديد:

- ماذا سنأكل على العشاء؟

لم أطلب منها أن تعد شيئًا على العشاء حينها، لأنه في الحقيقة لا يوجد شيء في المطبخ كي تعده! فما كان بي إلا أن أسألها:

- هل يوجد لدينا بعضًا من الخبز اليابس؟ إن كان موجود فعليك بتحضير حراق إصبعه...

هي صحيح تحمل ذات الاسم لوجبة طعام أصلها من الشام، لكن في الواقع شتّان ما بين الوجبتين، فهذه الوجبة تعد حاليًا وجبة الطوارئ

والإنقاذ بآن واحد في حلب، إذ لا تتطلب سوى الخبز اليابس داخل وعاء ماء مغلي مع فص ثوم وبصلة صغيرة برفقة ذرة ملح والقليل من السمن إن وُجِد وإن لم يتوفر السمن نقطتين زيت تفي بالغرض...

لطالما تسائلت عندما كنت صغيرًا لمَ هذه الوجبة تحمل هذا الاسم؟!

الأجدر أن يكون اسمها حرّاق لسانه وذلك لشدة حرارتها وحرقها اللسان عند أول لقمة! لكن الجواب الشافي كان يأتي دائمًا من البنت الحكيمة -إحدى بنات أفكاري- أنه قديمًا كانوا يأكلونها باليد لعدم توفر الملاعق فكانت أصابعهم تحترق عند تناولها.

الحقيقة جوابها مقنع ولا غبار عليه، الحمد والشكر لك يا رب على كلّ نعمةٍ فضلّتها علينا.

تقدّم نحوي صديقي عابد قائلًا لي بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد من الحاضرين في العزاء:

- والدتك واقفة عند باب الغرفة، تقوم بالإشارة إليك منذ برهة وأنت لم تنتبه لها قط!

قمت نحو أمي واقتربت منها معتذرًا عن عدم انتباهي ثم سألتها ما الحاجة التي جعلتها تترك مجلس النساء!

- نعم أمي خير؟ ما هنالك؟ لم أنت قلقة؟

- ابنك يا شريف يبكي جائع، ويبدو أن حليب بيسان فرط في ثديها بعد حالة الصدمة والحزن التي فيها، الرضاعة الطبيعية لم تعد نافعة له، وهو ما يزال رضيع بحاجة لأن يشرب الحليب ولا يمكن أن يشرب غيره!

وقفت صامتًا أمامها أفكر كيف أخبرها أني لا أملك القدرة على مصروف حليب العلب! بينما راحت إحداهن -بنات أفكاري- تخبرني:

- عزيزي شريف الأمر لا يحتاج كل هذا التفكير، اطلب من والدتك أن تبحث عن أم مرضعة بين المعارف والصديقات علّها تجد مرضعة بديلة ترضع ابنك بشكل مؤقت، ثم عسى أن تهدأ زوجتك ويعود الحليب إلى مكانه.

الموقف الثالث

القيمة في الوقت

أغلب المشاكل والقضايا التي تحدث معنا يكون المال المحور الأساسي فيها، والسبب الرئيسي في نشوئها سواء كان حاضرًا أم غائب! وخاصة في الأزمات حيث وجوده يساعد كثيرًا على إيجاد حلول ترضي جميع الأطراف ليختصر معاناة وألم قد تتحول إلى مأساة فيما بعد.

أعرف أن تلك الايام الصعبة ستمر كما مرت غيرها من الأيام، وحتمًا مع مرورها ستأخذ أشياء من عمرنا وتعطينا بدلًا عنها أشياء، إنها عملية تبادلية قد لا تكون منصفة ولكنها تحدث كل يوم كي تستمر الحياة، فإن توقفت عن الأخذ والعطاء فاعلم أنك ميت لا محالة.

منذ بداية الأزمة أخذت أشياء كثيرة منحى مختلف عما كنا نعيشه، ومنها الطريق بين المنزل ومكان العمل، فقد بات مليئًا بِالتضاريس الجغرافية التي لم نعتد عليها سابقًا! إذ لم يعد يوجد خريطة ثابتة يمكن الاعتماد عليها! فكل يوم ينشأ مسار جديد تخطّه الأحوال الأمنية الراهنة للمنطقة، والطريق الذي سلكناه بالأمس قد لا يكون آمنا اليوم وطريق اليوم قد يكون خطيرًا في الغد، وهكذا...

لذلك أنشأ أحد أفراد الطبقة العاملة مجموعة على الواتس اب أسماها طريق اليوم، يقوم أعضاء المجموعة في حال توفر النت لديهم على نشر مواقع الخطر الجديدة ومواقع القناصة فوق أسطحة البنايات كي لا نسلك طريقها، ونشر أيضًا الطرق السالكة بأمان أو الأكثر أمانًا لتجنب المخاطرة على الطريق، بالإضافة إلى نشر خط سير المواصلات الذي قد يتعرض للتغير بحسب حالة الطرقات اليومية، مما دعا إلى قفز أجرة المواصلات إلى الضعف كون الطريق أصبح أكثر صعوبة وأطول مسافة!

لقد فكرّنا أنا وبيسان ذات يوم أن نقوم أولًا بنزهة صباحية سيراً على الأقدام عبر طرقات فرعية توصل المناطق مع بعضها، ثم نفترق عند نقطة معينة ليركب كل منا المواصلات المؤدية إلى عمله، ونكون بذلك قد اختصرنا من أجرة المواصلات إلى نصف القيمة وقمنا بجولة

رياضية نستنشق من خلالها الهواء العليل، كنّا نعلم أن ذاك المخطط سيستغرق معنا وقتاً أطول، لذلك خرجنا باكراً برفقة زقزقة العصافير التي تسبق أي حدث كون دوام بيسان يبدأ من الحصة الاولى لهذا اليوم، فهي تعمل معلمة صفوف المرحلة الثانوية للغة الفرنسية في مدرسة حكومية بالإضافة إلى أنها تعطي دروس خصوصية في المنزل للإناث فقط بإستثناء جود جارنا في المبنى.

أودعنا فرات في ذاك اليوم عند جارتنا ليليان كي تذهب مع أولادها إلى المدرسة حين بلوغ الوقت، ثمّ اتجهنا الى الحديقة العامة لنقوم في اختصار المسافة، دخلنا من جهة منزلنا من الباب الرئيسي للحديقة لنخرج منها إلى الطرف الآخر من الباب المطل على مبنى شركة الكهرباء في حلب، والذي بات فيما بعد معلم أثري مهجور.

كانت خيوط الشمس قد انتهت من غزل قلنسوة الصباح معلنةً عن بدايةِ يوم جديد بعد ليلة رعدية ماطرة، الجو مشبع بالرطوبة المنعشة ورائحة التراب الزكية ملئت الأنفاس أمل وحماس.

لقد قامت الأمطار المتواصلة ليلة الأمس في عملية تبنّي غسيل الشوارع والأرصفة بعد تيتمها من قِبَل عمال البلدية، فبدت نظيفة وكأنها من مكان آخر غير الذي نحن نعيش فيه، لكن الأمر كان غريب بعض الشيء!

الحديقة كانت مزّدحمة والناس تجري باتجاه واحد نحو النهر الذي يمر من خلالها، وقد بدأت تفوح رائحة واخذة نخرت حاسة الشّم لدينا، والأصوات ارتفعت لأعلى مستوى الى قمة الدهشة بلا مصعد! دون أن نشعر دخلت مع بيسان موجة الازدحام وسَبِحنا مع التيار البشري المتجه إلى النهر...

لقد كان هناك أكوام من النفايات الغذائية مترامية على حافة ضفتي نهر قويق، بصقها الانجراف الطيني على دفعات متتالية جراء العاصفة المطرية الشديدة التي حصلت الأمس، كم هائل من الأغذية الفاسدة معجونة مع الطين والأوساخ كانت تملئ المكان، أكياس كبيرة من الفواكه والخضروات بأنواعها لا تصلح للاستهلاك البشري!

الجميع وقف من بعيد يراقب المنظر دون أن يدلي بأي كلمة، كانت الدموع تلمع في عيون النسوة أما الرجال فأخذت تضرب الكفوف ببعضها على الرزق المرمي أرضًا هباءً منثورا!

لم يتكبد أحد عناء النزول إلى الضفاف كي يلتقط الرزق المسكوب أمام رغباتهم وجوعهم، فقد كانت مهمة التفتيش عن شيء صالح للأكل ضرب من الجنون، والتعب المهدور والوقت الضائع بلا جدوى في الحصول على لقمة نظيفة...

لقد فسدت كميات كبيرة من الخضروات والفواكه التي كانت في المنطقة الشرقية قبل أيام جراء القرار المجحف الذي لزم بعدم خروج أي منها إلى المنطقة الغربية، فرُميت في النهر من طرف منطقة بستان القصر حيث جرفتها مياه الأمطار الغزيرة لتحط على ضفاف النهر في الحديقة العامة.

كان المنظر مؤلم وحزين أن تكون أمام أصناف من الطعام تشتهيها نفسك ولا يمكنك تناولها، لكن ما قيمة المراقبة إن لم يتغير شيء؟! فكلما طال التحديق في الأمر طال الألم والقهر.

في بعض المواقف لا مجال لفعل أي شيء سوى الانسحاب، وهذا ما حصل!

لقد دار كل شخص ظهره للمشهد كي يتوجه إلى عمله، وبدأ الواحد تلو الآخر بالابتعاد عن الموقع، عدم الاكتراث كان سيد الموقف بالرغم من الآهات التي أحرقت بيادر الحرمان.

الجميع يعرف أن هناك شيء أهم بكثير من الوقوف والمراقبة، هناك العمل بجهد وكد للحصول على المال لمواصلة العيش، وعن أي عيش! العيش بجوع العيش في برد، العيش مع الخوف....

وبينما كنت أفضفض إلى نفسي، همست بيسان بصوتٍ خافت قائلة:

- شريف! لقد تعبت ولم أعد أستطيع المتابعة.

نظرت إلى وجه بيسان كان قد تغيرت ملامحه وبدى أصفر شاحب اللون، تقَطُّبَ جبينها وباتَ كأن الهواء يخنقها ثمّ غابت عن الوعي متراميةً عليّ دون أن تنطق بعدها بكلمة!

استجمعتُ قواي لحملها وخرجت بها من دوامة الصدمة بصعوبة، ما أن وصلنا الى باب الحديقة حتى أوقفتُ سيارةَ أجرة متجهين بها الى أقرب مشفى غير آبه بقيمة أجرة التوصيل التي قمنا على ادخارها قبل لحظات والتي تضاعفت بسبب ضرورة الموقف فالمهم كانت صحة بيسان والاطمئنان عليها...

وصلنا أقرب مشفى في الجوار وكانت من نصيبنا مشفى خاص مختص نسائية وتوليد، وفي أول خطوة كان عليّ دفع قيمة الكشف الطبي قبل الفحص السريري من قبل الطبيب المختص، ثمّ توجهنا الى مخبر المشفى لأخذ عينة من الدم و البول كي يتسنى القيام بالتحليلات اللازمة، وبعد انتظار قرابة الساعتين وأكثر أتي دورنا...

اللهمّ لا حسد، فقد كان الوقوف أمام باب غرفة الطبيب أشبه بمسيرة نسائية تطالبنّ بحقوقهن...!! كنت الرجل الوحيد بينهن، لن أصدق طيلة عمري كيف وقفت تلك الوقفة! كنّ ينظرن إلي بدهشة واستنكار وفي عيونهن مئة سؤال وسؤال، أغلبهن حوامل إن لم يكن جميعهن!

بالرغم من الأزمة التي نمر بها ماتزال بعض المهن في أوج عملها، أولها طبيب النسائية والتوليد، الرجال يصبون كامل همهم في إقامة العلاقة الحميمة مع نسائهن، وخاصة في تلك الفترة العصيبة! أما النساء فَتحملّن ثم تلدن والمسؤولية تكبر في تأمين المزيد من المال لسد قيمة فاتورة الولادة في المشفى إلى تأمين الحفاضات والأدوية وهلم جرّا... والجميع يعرف حجم القضية الثقيل ومع ذلك يحملها!

فكرة إنجاب المزيد من الأطفال باتت فكرة تتطلب دراسة عميقة، بل في هذا الظرف السيئ لن تكون فكرة جيدة أبدًا! فهناك ألف طلب وطلب عليّ تأمينه وكلها من الطلبات الضرورية التي لا يمكن الإستغناء عنها أو استبدالها... عقلي انفجر من شدة التفكير.

أخيراً دخلنا غرفة الطبيب و التقينا الوجه الحسن، وعلى موجب نتيجة التحاليل أخبرنا الطبيب سبب الحالة التي وصلت إليها بيسان من وهن مفاجئ وغثيان، قائلًا مع ابتسامة عريضة:

- مبارك سيدة بيسان، بحسب نتائج التحليل أنت حامل في الشهر الثاني...

المُفآجأة أكلت لساني دون ملحٍ، لقد كنت للتو مستنكر من حالات الحمل التي تحصل في ظروف غير موالية، وقمت على لوم الرجال في ذلك وها أنا ذا واحد منهم!

حينها نظرنا إلى بعضنا البعض وتجمدت ملامح كلٍ منّا على خبر غير متوقع، نحن من خمسة سنوات أردنا أخ أو أخت لفرات لكن سبحانه وتعالى أجلّ رغبتنا الى حيثُ يشاء، ولا اعتراض على حكمه في جميع الظروف.

غادرنا المشفى مع وصفة طبية تليقُ بالخبر ولك الحمد يا إلهي، عائدين إلى المنزل بسيارةِ أجرة للمرة الثانية... بنات أفكاري مؤكدات لي أنّ حساب السوق لا يطبق على حساب الصندوق كما قال الأجداد.

ها قد وصلنا الى مدخل البناء وجارتنا أم الجود تقف أمامه، وهي تلهث في وضعية انحناءة مثل إشارة استفهام عجوز وحولها أكياس صفراء، كان منظرها مثل الدجاجة وهي تتفقد صيصانها كي تتأكد أن الجميع حاضر لا غياب ولم يهرب أحد منها.

لقد رأتنا أم الجود نترجل من سيارة الأجرة فبدت تعاليم الدهشة على وجها قائلة:

- مرحبا حبيبتي بيسان، أراكم قد أتيتم بسيارة أجرة !!

وجهك شاحب...خير ان شاء الله، ما الأمر؟؟

سبقتني بيسان بالصعود إلى المنزل بعد رد السلام على جارتنا، ثم تركتني واقف معها، فاضطررت أن أخبرها سبب وعكة زوجتي الصحية، لتقدم لي بعدها التهاني والمباركات على هذا الخبر الجميل.

كانت تقف حائرة تتسائَل كيف ستصعد بِكتاكيتها إلى الطابق الخامس!

وهي تمتم بصوت مسموع:

- يا إلهي...! يا مجيبِ الدعواتِ يا مُسَخّر يا مُيَسّر...

نظرة أم الجود نحوي وهي تتكلم دمرّت كلّ الحواجز التي بَنيتُها للهرب من تلك المهمة، وابتسامتها الصفراء العريضة التي عَلتْ وجهها أوحتْ لي أني في مأزقٍ مُحتّم جعلتني أمدّ لها يد المساعدة في حملِ ما تقدّم وما تأخر.

بعض الإبتسامات فِخاخ، وحدهم المارون بسلام يقعون فيها.

يا معين أعّنا، سَهّلْ صعودنا ويسرّ أمرنا...

إنّه الطابق الخامس وما أدراكَ ما الطابق الخامس ؟؟!

قديماً كنّا نُجذي حَسناً بسكان الطوابق الأخيرة على المنظور الرائع الذي يطلّ على الحديقة العامة في النهار، أما الأضواء الملّونة المنبعثة ليلاً من طريق النهر كانت تضفي منظر رائع كأنه لوحة فنية من العاصمة باريس، لكن ما إن بدأت الكهرباء بالانقطاع والأمان بالغياب بات سكان الطوابق الأولى والثانية أوفر حظاً، لأن الطوابق الأخيرة باتت معرضة أكثر لخطورة القذائف العشوائية أولًا، أما ثانيًا فالمصعد لم يعد في الخدمة نظرًا لانقطاع الكهرباء المتواصل.

لذلك كوننا نقطن في الطابق الرابع اتّبعتُ سياسة القوة من التجزئة أي أُجزِئ شراء طلبات المنزل لتكون أخف في الثقل وأسهل في الحمل فأكون بذلك قمت بتوفير طاقتي لعملٍ آخر.

ونحن نصعد السلالم أخذتْ أم الجود التبريرات لها منشاراً لتقطع الوقت والجهد معاً، رَوت لي أن الملل لازمها لفترة سابقة حتى مَلّت منّه فأرادت قتله بحياكة كنزّات صوفيّة، ولقد اتفقت مع صاحب محال الذي يتوسط حيّنا بأن تعرض عنده إنتاجها من حياكة الصوف مقابل نسبة على البيع لكلّ كنزةٍ تُباع في محلّهِ...

عرفتُ حينها نوع الحمولة، إنها كرات من الخيوط الصّوفية الملّونة تنحدر من فصيلة التسلية مع وارد إضافي للسيدة أم الجود لكن أظنّ أنها بالغت كثيراً للكمية التي اشترتها فهي تكفي لمئة كتكوت... هههههه أقصد كنزة.

وفي سياق الحديث كانت قد أخبرتني أن زوجها أبو الجود مدَّ بسطةً على الرصيف عند دوّار الموت (دوار كبير يقع مدخل مدينة حلب من الناحية الجنوبية و سُمي بدوار الموت لكثرة الحوادث المرورية التي تقع حوله حاصداً أرواح صاحبيها) يبيع عليها البضاعة المتبقية في منزلهم من الأدوات المنزلية الزجاجية بعدما تدمرّت دكانه من جرّاءالحريق الكبير الذي نهش سوق السبع بحرات القديم، فأغلب

أصحاب المحلات الذين كانوا هناك انتقلوا الى دوّار الموت يعرضون بضائعهم على الرصيف، أو في كشك صغير من صفائح التنك أو في خيّمات قماشية أعدّوها لذاك الغرض.

وأنا أصعد طابق تلو الآخر حاملًا الأكياس كنت ألتقط أنفاسي التي تساقطت على السلم، أما هي كانت ما تزال تتحدث:

- الحمد لله على الصحة والعافية، المهم كلنا بخير.... أنت تعرف يا شريف أن وارد واحد لم يعد يكفي مصروف البيت في هذا الزمن، على كل فرد من العائلة العمل والمساعدة قدر الإمكان، وأنا لا أعرف سوى حياكة الصوف كي أشارك أبو الجود في مصروف البيت، نحن لا نسعى لتوفير الكماليات بقدر ما نريده هو تأمين الأساسيات والله المستعان....

أخيراً و ليسَ آخراً وصلنا الى القمة، قمة البناء المنشود وصوت أم الجود أخذ يُرَتِلّ:

- جود يا جود... افتح الباب لقد جئت.

وإذ بجود باشا البيك يفتح الباب لأمه كأنها سلطانة زمانها وأنا لا حول لي ولا قوة لأيّ تعليق، اكتفيت بوضع (لايك) وبنات أفكاري يتخَبطنّ في أمواج الغضب وَيتسائلن:

- ما دام حضرةُ جود في المنزل، لمَ لم ينزل ؟؟!!!

كأنّ أم الجود انتبهت لضجيج البنات فأجابتهُن:

- جود اليوم حرارته مرتفعة ولا يملك القدرة للحراك.

(لايك) آخر لَتبرير دلعها لابنها جود بتقريرٍ طبّي مغشوش.

- عليه ألف عافية حبيبي جود.

ها قد عُدنَ للشغب هذه المرة مع بعضهن البعض، كل واحدة منهنّ أرادت أن تدلي خطاباً تُثني بواسطته على سذاجتي....

- ألم يكن بالإمكان تأجيل تنفيذ اتفاقية أم الجود مع صاحب المحال الى يومٍ آخر ؟؟؟ الى يوم يكون فيه جود باشا على أتم صحتهِ حتى تستطيع والدتهُ الاستعانة به في حمل الأكياس إلى الاعلى!! أم أنّ أم الجود من بعد قتلها الملل سارعت إلى دفنه خوفاً من أن يعود إليها مرةً أخرى؟؟!

- كلّ شيءٍ من حولنا مؤجلٌ الى إشعارٍ آخر، من الهدنة وَاتفاقية السلام التي ثقّبت آذاننا إلى رفع رواتب الموظفين التي يُفترَض أن تكون ممسكةً بيد الدولار بقوة لتحطيم ارتفاع الأسعار معاً على أساس يد واحدة لا تُصفق..

- صحيح أن اليد الواحدة لا تصفق لكنها تصفع وبشدة!

تجرأتُ وقتها على بنات أفكاري وقطعتُ اجتماعهنّ، ثم اقترحت على أم الجود أن تقوم بصنع مصعد يدوي خاص لرفع الأشياء بأن تربط

حبل ثخين بدلوٍ من صنع البلاستيك أو القش، وجود -حفظه الله- يرفع لها المشتريات من أمام مدخل البناء إلى الأعلى وهو واقفٌ في الشرفة بواسطة ذاك الحبل والدلو أو العكس، بحيث يتم أيضاً بواسطته عمليات إنزال بكل سهولةٍ وطمأنينة كالتخلص من كيس القمامة مثلًا...

ابتسمت أم الجود ابتسامتها المعتادة وقالت بمَكرٍ ودود:

- أفكارك دائمًا خارقة أخي شريف، والخير بأن يتم على أكمل وجه وأنا بانتظار تنفيذ اختراعك عافاك الله.

فوراً أجابتني إحداهن (بنات أفكاري):

- يا حبيبي! في المرة القادمة الأفضل لك أن تفكر بصمت، ما كل ما يفكر به المرء يُقال، فقد تغير رأيك آلاف المرات في لحظة واحدة!

وما إن أراني أُجيب لطلب أم الجود متجاهلًا ما أغضب البنات:

- حاضر أختي أم الجود، لحظات ويكون المصعد اليدوي تحت أمرك وخدمتك.

(لايك) هذه المرة ثلاثي الأبعاد للسيدة ليليان المصونة، والحق يُقال أنها تستحق تلبية طلباتها دون تردد، كونها احتضنت بيسان من بداية زواجنا، فهي مَن علمتها طبيخ كافة أنوع المأكولات الحلبية وهي مَن

أعانها في تربية فرات وهي مَن تقوم بإدلاء النصائح لها في كافة المجالات، كانت لها الأم والأخت والصديقة في الغربة...

بالإضافة إلى الصداقة التي تجمع بين الأولاد فَفلذة كبدها جود في المرحلة الإعدادية هو المسؤول عن توصيل فرات و أخته جوري ذات العشرة سنوات الى المدرسة ذهاباً و إيابا....

لذلك كل طلبات الست ليليان أوامر، أنفذها عن كامل طيبة خاطري.

تنحدر السيدة ليليان من العائلات الأرمنية التي أتت من منطقة كيليكيا بعد انسحاب القوات الفرنسية في الربع الأول من القرن الماضي، والتي كانت تحتضن أعداد كبيرة من الأرمن حيث جاءت مجموعة منهم إلى المناطق السورية، وعائلتها كانت من المهاجرين الأرمن الذين وضعوا ترّحالهم في حلب.

نزلتُ مسرعاً إلى المنزل وأنا أهزّ برأسي كعلامة الإيجاب والرضى لتمتمات الشكر التي هطلت عليّ من جارتنا أم الجود، الكلمة الطيبة تجعل منك شخص خارق مبدع نشيط جميل بطل شجاع.... تجعل منك شخص لا تعرفه! الكلمة الطيبة كفيلة بأن تمدنا بالسعادة حتى وأن كنا في أعلى درجات التعب والألم.

عندما دخلت إلى المنزل كانت بيسان تتحدث مع والدتها على الهاتف، سمعتها تزف خبر الحمل قائلة:

- أمي أنا حامل في الشهر التَاني ولا أعرف كيف حصل ذلك!!

جميعهنّ يقلنّ العبارة المشهورة عندما يحملنّ، لا أعرف كيف حصل ذلك؟!... ثم تابعت:

- نحن جميعنا بخير لا تقلقوا، وأنتم كيف الأحوال عندكم؟ أنا قلقة جدًا عليكم، أحمد الله وأشكره أني سمعت صوتك...

لم تطل المكالمة كثيرًا حينها لأن الاتصال انقطع من جديد مع أهلها، فقد كان الوضع لديهم مُلبّد بالغيوم أيضاً ويُنذر بإقتراب عاصفة هوجاء كون اقتراب داعش من مشارف مدينة القامشلي بعد بسط سيطرتها على مدينة الرقة وجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية كما ورد في الأخبار العالمية ومواقع التواصل المختلفة.

بعد دخولي المنزل بخمسة دقائق كانا المِصعدان جاهزيَن لمباشرة العمل واحد لجارتنا السيدة ليليان والآخر للمدعو شريف حضرتي، حقوق العمل محفوظة ولا بد أن ينال منها صاحبها على الأقل....

و بنات أفكاري عُدنّ و هُنّ يُنشدنّ على نغمة أغنية شاطر شاطر للمغنية نانسي عجرم:

حاور على قدر حجم العقول

حاور.... حاور

جاور من كان له في الأصول

جاور.... جاور.

أتى صوت صديقي عابد من داخلي وقطع عليّ ما كنت فيه من ذكريات مع جارتنا أم الجود قائلًا لي:

- عزيزي شريف هناك مثل يقول الحي أبقى من الميت، الفتى جود قابع وحيد في الغرفة، وأنت هنا ولست هنا في مجلس العزاء! جسدك موجود وعقلك مسافر، جيد يا صديقي لو قمت للتحدث معه حتى يشعر أنك بجانبه وتفكر به... هناك مواقف يا صديقي لا ينفع معها التأجيل حيث تتطلب المساندة الفورية، فكلما تأخرت في تقديمها فقدت قيمتها الفعلية مهما كانت كبيرة.

صحيح كيف نسيت جود في هذه المصيبة؟!

شكرًا صديقي عابد لأنك دائمًا تعيدني إلى الواقع.

الموقف الرابع

الاسم يعني التميز

علّمتني الحرب أشياء كثيرة، ما كنتُ سأتعلمها لو عشتُ ألفَ عام.

عدت إلى مجلس العزاء بعدما جلست مع جود عشرة دقائق لا أكثر، لم أنطق أمامه بأي كلمة! ماذا أقول؟ لقد ماتت كل الكلمات الإيجابية التي بمقدورها أن تسند ذاك الصبي في مصيبته! ولم يبقى سوى الأفكار الهزيلة التي جاءت بها بنات أفكاري لتضعها على رأس لساني، بيد أن صديقي عابد استطاع لجم التفوه بها في اللحظة الأخيرة! وصرخ عليهن غاضبًا:

- كفاكنّ تشائم يا بنات، ألا تعلمن أن الأفكار السيئة تقتل صاحبها؟ قلّن خيرًا أو اصمتنّ.

اللهم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، لا أعلم يا عابد كيف يمكنك مسك زمام الأمور بطرفة عين؟! وتبلي حسنًا عندما تنجح في السيطرة عليها، فتلك المهمة باتت من صعاب المهمات بل من المهمات المستحيلة في هذا الزمن!

بينما زوجتي بيسان إذا دخل في عقلها أمر ما فمن الصعب التخلص منه إلى أن تحصل عليه، الواضح أنها لا تملك صديقًا مثلي اسمه عابد!

حيث لها في ذاكرتي قصة السفرجل، ففي بداية حملها هدست بذاك النبات الموسمي المفقود، هي لم تطلب مني بشكل مباشر لكن حديثها المتواصل عنه كان واضح أن السفرجل قام على احتلال معظم تفكيرها! حيث أخذت تعد لي أصناف المأكولات التي يدخل في إعدادها هذا النبات، بداية من الكبّة السفرجلية التي تُعتبر من ألذ المأكولات ذات فصيلة الكبّيات، إلى مربى السفرجل الذي لا يمكن أن يضاهيه أي نوع آخر من المربّيات، ناهيك على أن السفرجل يُؤكل كَالتفاح لِما يحتوي لفوائدٍ طبية، خاصة للحامل في أشهرها الأولى.... كانت لا تنفك بالحديث عن السفرجل وأصناف مأكولاته وفوائده، حديثها كله تحول عن هذا النبات العظيم الذي لا يزورنا إلا في السنة مرة! وغير محبذ أصلًا بوجوده على المائدة! لكنه أصبح كنز من كنوز علي بابا.

نكزتني حينها إحداهن وهي العاطفية بينهن - بنات أفكاري - فألقت عليّ محاضرة صباحية:

- ماذا دهاك يا شريف ؟ إن اللبيب من الإشارة يفهم، زوجتك حبيبتك تشتهي السفرجل وإن لم تأكله ستظهر وحمة السفرجل على الطفل، وأنا لا أضمن لك بيسان أين ستُطفئ تلك الوحمة عندما يبدأ جسدها بالغليان مطالباً ولو قضمة صغيرة من هذا النبات!

أجابتها البنت الواقعية بحالة من الاستهزاء:

- يحمد الله و يشكرهُ ألف مرّة على أن زوجته نباتية لا تحّب أكل اللحوم بأنواعها، ماذا لو كانت تشتهي سيخاً من اللحمة المشوية (كباب أو شقف) أو أنها اشتهت (معلاق مطجّن) أو أي أنواعٍ أخرى من الصدور وأفخاذ الدجاج التي يحلم بها حضرته!! ليست إلا سفرجلةٍ واحدة والسلام.

تابعت العاطفية حينها:

- هيّا قم يا شريف أنتَ لها، رجل المهمات الصعبة.

أعرف أني بارع في المراوغة فيوم عن يوم كنت أهرب بطريقة زكية ريثما زوجتي تغير رأيها لكن ذلك لم يحصل! حيث منعت عنها وصول شعور عدم اللامبالاة لطلبها إن لم آتي بالسفرجلة، كون العمل هو

العائق وراء القيام برحلة البحث عنها، إلى حين وصلت إلى ضرورة التحرك، فالوضع لم يعد يحتمل التأجيل أكثر من ذلك.

رحلةِ إستكشاف نبات السفرجل ليست سهلة البتة، كنا في فصل الشتاء والسفرجل لم يكن أوانه، وهذا يعني إن لم أجده على إحدى الشجرات لن أجدهُ مطلقاً! فلم يعد أحد يقوم بتخزين مأكولات الصيف الى الشتاء أو العكس، أمسينا نأكل محصولات كل موسمٍ بموسمهِ، لا داعي لذكر السبب فقد باتَ معروفاً يرعاك الله....

لكن كان عليّ أولًا أن أقوم بحَلق لحيتي الطويلة قبل نزولي إلى الشارع كي أتجنب أي نظرات هادفة أنا بغنى عنها، وبما أني لا أنتمي إلى أي من الفئات صاحبة اللحى لا بد التخلص منها بأسرع وقت كون أي ملتحي بات شبهة عند الناس! في جميع الأحوال المواطن الحلبي له صفة لونية تدلّ على أي فئةٍ هو وأن أكون رمادي ليس بالسوءِ أبداً كما يظُّن البعض.

إن مسألة حلق اللحية معاناة حقيقية في كل مرة أقوم بذلك، المياه باردة دائمًا وغالبًا تكون الكهرباء مقطوعة ومع هذا كله أنهي العملية خلال عشرة دقائق، فقد أصبح لدي خبرة ومهارة بالقيام بها بالرغم من الظروف السيئة.

من أكبر النعم التي يملكها المرء هي خاصية التأقلم، أن تتبدل بك الظروف إلى الأسوأ ولا تعرف كيف تعيش معها هذا أمر صعب جدًا، بل ويصل أحيانًا عند البعض إلى حد التعب النفسي أو المرض الجسدي، البراعة في الحياة هي أن تستطيع العيش في جميع الحالات التي تتعرض لها، وغير ذلك فأنت تتحول إلى ميت حي.

كانت بيسان مشغولة في المطبخ عندما خرجت من الحمام، أنهيت ارتداء ملابسي متوجهًا نحو باب المنزل لأذهب للبحث عن المطلوب! ألقيت التحية على زوجتي بطريقة سريعة هروبًا من أي تعليق أو سؤال، لكنها انتبهت على مظهري الجديد حيث اقتربت قائلة بعدما طبعت رسمة شفاهها على وجنتي اليمنى:

- نعيماً حبيبي، هل أنت ذاهب إلى الجامعة؟ الوقت ما يزال مبكرًا لدوامك!

أجبتها وأنا أمسح آثار الجريمة قبل توثيقها:

- نعم يا روحي، هل تريدين شيئًا؟
- كلا، سلامتك، برعاية الله وحفظه.

نزلت الشارع دون أن أُخبر بيسان بأني ذاهب أولاً في رحلة استكشاف سفرجلة، آَسرتُ أن أُبقي هذا الأمر سراً بيني وبين بنات أفكاري... فقد

يتعثر علىّ إيجادها! وهي إن تأملت الحصول عليها قد تثير حاسة التذوق وذاك الأمر لن يُحمَدْ عُقباه إن فشلت عملية البحث.

هُنا قفزت أمامي إحداهُن على غير عادتها البنت المثّقفة الهادئة وهي غاضبة تصرخ عليّ أمامهن جميعاً:

- أين أنتَ يا شريف من الوحمة... ؟!! الوحمة ليست إلا عبارة عن تغيرات غير عادية تحدث فى التخليق لبعض الأنسجة ومن الممكن أن تصيب نسيجاً ما فى الجلد، فتكون نتيجة خلل ما أثناء تخليق الأوعية الدموية، وتتكاثر بشكل غير عادى فى مكان ما... أو تكون نتيجة خلل فى الخلايا الملونة فتكثر فى منطقة ما لتعطينا الوحمة. ثمّ أضافت: أن ما نسميه بالوحمة ليس له علاقة بالوحم أو ما تطلبه المرأة أثناء فترة الحمل فَالوحم ما هو إلا دلع سيدات وليست الوحمة مقصورة على نتيجة ما تأكله أو تشربه المرأة الحامل! وأنت يا شريف يا مثقف ما أظن أنك تصدق تلك الخرافات!!

أجبتها حينها بكل ثقة وفخر:

- عزيزتي المثقفة أعرف كل هذا، لكنّي أريد أن أُعبّر عن مشاعري قبل أن تشحّ و لو بحبّة سفرجل... أريد أن أُبرّهن

لحبيبتي أني مازلتُ المحارب المغّوار ذو السّيف البتّار، ما
شأنكِ أنتِ؟ لِمَ تغارين!! اهدأي قليلاً ودعيني وشأني رجاءً.

وقفت أمام باب المبنى وقبل أن أخطو أي خطوة إلى الخارج، فتحت يداي إلى السماء دعوت ربي الكريم الجبار بالتيسير ورفع الشأن، وأن يسد شهية زوجتي عن السفرجل إن باءت العملية بالفشل وَيهديها الصواب إن غابت الأسباب، ثم اتكلت عليه في تلك المهمة الصعبة.

كنت متفائل بأن أجد السفرجلة بكل سهولة، فحسب قانون الجذب الذي قرأتُ عنه في ذات فضول، أنّ قوة أفكار المرء لها خاصية جذب كبيرة جداً فكلما فكرّت في أشياء أو مواقف سلبية اجتذبتها إليك...

وكذلك كلما فكرت أو حلمت أو تمنيت وتخيلت كل شيء جميل وجيد ورائع تريد أن تصبح عليه أو تقتنيه في حياتك قمت بجذبه اليك أيضاً، فإن قوة هذا الأفكار الصادرة من العقل البشري تجتذب إليها كل ما يتمناه المرء... لكن هذا الكلام يبقى هراء إن لم يُحرك ساكن! فمهما حلمت بالحصول على الشيء الذي تريده لن تحصل عليه إن لم تعمل أو تتحرك، الأشياء لا تأتي من تلقاء نفسها!

بعد السؤال عن الأحوال لأكثر من ثلاثة دكاكين بقالة، أيقنت منهم أن لا وجود للسفرجل في السوق... وإن وُجِدْ سيكون سعره خُرافي، وربما بالعملة الصعبة كونه مادة انتهت صلاحية توفره.

عندها قررت اللجوء الى سوق الخالدية المشهور في حلب لتوافر جميع ما تشتهيه الحوامل من المنّ والسلوى إلى لبن العصفور، وبطريقي الى هناك مررت من أمام القصر الوردي المطلّ على الحديقة العامة، تذكّرت حينها أن له بستان صغير يَحوي أشجار مثمرةً وعرائش ورد من جميع الأنواع أيام كانت الماء متوفرة لسقاية البستان... وقفت أمام باب القصر أختلس النظر إلى المزروعات التي داخله علني أتعثر بشجرة سفرجل هنا أو هناك!

وإذ أشارت عليّ المتفائلة -إحدى بنات أفكاري- قائلة:

- لن تخسر شيئاً، نادي الحارس المُقيم واسأله عن حبّة سفرجل، عسى ولعلّ أن تكون بانتظارك لتأخذها معك.

وهذا ما حصل بالفعل، قمت بالمناداة بصوت عالي أنتظر خروج الحارس الذي يقطن في القصر بعدما هاجروا أصحابه الأصليين الى السويد....

- هل من أحد في القصر؟! هل هناك أحد!

ظهر بكل ثقة رجل ثلاثيني يرافقه شابان، بدا وكأنه صاحب القصر الحقيقي، كان الجميع ملتحي بلحى ثخينة، ويمتلكون أجساد ضخمة ذو عضلات مبرومة كالحلويات الشرقية المشهورة بها حلب (مبرومة بالفستق الحلبي الفاخر) أجابني أحدهم بلهجة قاسية:

- ماذا تريد؟ لمّ كل هذا الصراخ من الصباح؟!

كنت أرتعش من الخوف، لوهلة ما لم أعرف كيف أتدارك الأمر، ماذا أقول وكيف أبدأ؟! كانت المتشائمة منهن تنعيني قبل أن أفتح فمي بأي كلمة! لكن حينها تجاهلت ما سمعت منها وقمت على جمع قواي المتناثرة، ثم برباطة جأش أجبته:

- منذ أسبوع وأنا أبحث عن حبة سفرجل ولم أجدها، فزوجتي حامل أعزكم الله والسفرجل يدغدغ شهيتها بشدة، كنت أتسائل مع نفسي لو أجد حبة واحدة في بستان القصر أكون لكم من الشاكرين.

عَلت ضحكات الشباب بطريقة ساخرة، بينما كنت بكامل استعدادي لأي ردّة فعل سيئة قد تصيبني! كل شيئ بات متوقع في هذا الزمن، لم يعد هناك أي قواعد أو أساس نبني عليها علاقاتنا مع الآخرين.

لكن لم أتوقع أبدًا أن يقترب أحدهم نحو بوابة القصر ويفتح لي الباب قائًلًا:

- ادخل إلى البستان وابحث بنفسك، إن وجدت طلبك خذه وارحل من هنا.

شكرته على كرم التلبية، من ثم دخلتُ باحة القصر مُتضرعاً ربي بأن يُسهل أمري ويُسّر ما جئت من أجله...

كانت تلك أول مرة أدخل فيها باحة القصر وأشاهد القصر عن كثب، كم هو فخم هذا البناء المعماري الرائع! عمره من أوائل عقود القرن الماضي، عاصر الحرب العالمية الثانية والاحتلال الفرنسي للبلاد من ثمّ الجلاء عنها، بعده أيضاً كان شاهد على الانقلابات المتوالية في الحكم التي شهدتها مدينة حلب حينها، وحتى الآن ما يزال يُثبتْ صموده ويقف شامخاً الى تلك اللحظة...

وهذا اللون الورديّ الساحر للأحجار الرخامية الأنيقة المزّينة بالنقوش الناعمة كَالإيتامين، يُخبر المشاهد بأن حورية من حوريات حلب قامت بِتطريزها بواسطة خصل شعرها المحّناة بالحّنة الحمراء، لتَجعله يعيش في قصر الأحلام أو في قصر من قصور قصص رحلات أليس في بلاد العجائب...!

آهٍ لو كنت أملك تلك التحفة الفنية، ما كنت تركتها للزمن الأرعن، لكن "لو" تفتح عمل الشيطان وأنا وقتها لا عمل لي هنا سوى ما جئت لأجله!

صوت حاد نادى عليّ فقطع حبل الأمنيات:

- ما بك يا أفندي؟! قلنا لك خذ طلبك وارحل، لم نقل لك اعمل جولة سياحية في القصر!

اعتذرت منه على التأخير وطلبت المزيد من الوقت كي أنهي المهمة وأخرج، أخذت البستان تحت ناظريّ وبدأتُ التفتيش شجرة شجرة، كان هناك في الزاوية الشمالية شجرة سفرجل تنتظر تشريفي، اقتربتُ منها أكثر فاكثر حتى يتضح لي ما رأيت! كانت عارية من الأوراق تقريباً إلا ما ستر نهاية أغصانها الهزيلة، وضعت رأسي بين الفروع ونظرتُ من أسفلها الى أعلاها، سألني عابد: ما هذا الذي أراه بين السيقان يا ترى؟ ثم أجاب قبل أن أجيبه: إنها كرة ضئيلة بارزة بخجل، عليها طبقة سميكة من الغبّار والشحّار ...

حمدت لله حمدًا كثيرًا على ستره ورزقه، لقد وجدت حبّة سفرجل واحدة صغيرة جداً، كانت مختبئة بين الأوراق اليابسة التي صمدت مع تقلبات الطقس، وبهزةٍ خفيفة للشجرة كانت السفرجلة على صدري بين أحضاني مُرّحباً بها أجمل ترحيب ومُسهّلاً لها طريقاً للجيب....

إنها كنزٌ ثمين لدرجة أنها أغرتني ألتقط معها صورة سيلفي والقصر الوردي خلفي، ثمّ هَرعتُ مسرعاً نحو البوابة وأنا أشكر الشباب على كرم ضيافتهم وحسن استقبالهم.

ولسعادتي الكبيرة بها نال مني الطريق الى منزلنا خمسة دقائق، كنت أهرول بسرعة كبيرة وأنا في حالة عدم تصديق بأني حصلت على هذه

الدرة الصفراء! صحيح أنها صغيرة ويابسة كما ذكرت، لكن ما تزال تملك الاسم ذاته ألا وهو سفرجلة ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك.

الاسم يُلازم المرء أو الشيئ من لحظة تكوينه الى فنائه، فمهما حاولت الظروف تغيير صفاته يبقى الاسم كما هو لا يتغير.

وصلت إلى أمام مدخل البناء والفرحة تحيط بي من كل جانب، قمت بإرسال رسالة نصّية إلى بيسان عبر الهاتف المحمول طلبت فيها أن تُنزِل المصعد الصغير من الشرفة فهناك مُفآجاةٌ جميلةٌ لها...

ثوانٍ و كان الدلو جانبي، وضعتُ السفرجلة المعتبرة في الدلو بعد أن قمت على تلميعها بيداي، أرفقت بعض الأزهار البرّية التي قطفتها من أمام مدخل منزلنا، ثم أومأتُ برأسي الى بيسان بأن ترفع الدلو الى الاعلى، رأيت حينها الوجه البشوش الذي غاب عني أيام.

بينما البنت العاطفية التي كانت مستلقية تقرأ من قصائد نزار، همست مُبتسمة بنعومة مُلّغَمة داخل أذني:

- تبدوان كروميو وجولييت يا عزيزي ...

كان أجمل ما هنالك إحساس نشوة النصر الذي شعرت به طوال الطريق وأنا ذاهب إلى عملي في الجامعة، أن تكون مصدر سعادة وأمان لشخص تحبه أمر رائع، بينما أن تكون عاجز أمام تأمين أي شيء فهذا شعور مؤلم لن تقوى روحك على تحمله إن تكرر.

انتهت قصة السفرجلة نهاية سعيدة، لكن نهاية ذاك اليوم لم تكن كذلك، وصلت يومها متأخر عن المحاضرة بثلث ساعة، ظن الطلاب أني لم آتي لسبب ما، فمن كان بيته قريب من الجامعة ذهب إليه ليعود في المحاضرة التالية، ومن كان بيته بعيد عنها بقي ينتظر داخل الحرم الجامعي لصعوبة المواصلات والتنقل بين المناطق...

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا وميدان الجامعة مكتظٌ بما هَبَّ ودَب، فهذه الساعة هي ذروة الازدحام بالإضافة الى أنه يوم اختبارات فصلية من العام الدراسي للكليات الدسمة كالطب والهندسات، ما عدا ازدحام الشوارع المحيطة بها فقد كانت ممتلئة إلى أقصى حد من الناس والسيارات.

سمعت وقتها صفير آتي من بعيد ثم قوى بسرعة جنونية، لدرجة تراقص معها زجاج النوافذ ثم ما لبث أن تحول إلى اهتزاز عنيف أوقعه قطع مكسّرة... لقد كانت طائرة حربية رأيتها بأم عيني رمت بأول صاروخ فوق الساحة ثم عَلت، دارت في صدر السماء ثم انخفضت من جديد لترمي الصاروخ الثاني فوق كلية الهندسة المعمارية، بعدها شقّت السحاب وغابت دونَ تفسير إلى هَولِ ما حدث!

الجميع اختبئوا خلف دهاليز الذهول، فقد كان الجحيم يحوم حولنا ولم يكن هناك مفر للهروب! اختفى السلام لوصف المصيبة، حتى

الأحاسيس تجمدت وغاب الكلام عنها! المشاهد هجرها النسيان والأحلام ماتت دون أن تتحقق! كل شيئٍ ذهب... لا فضّة ولا تنك! كأنه زلزال عنيف ضرب الأرض، فتح معه أبواب السماء! أخذت الجثث تتطاير في الأجواء بالعشرات، واللون الأحمر أزهر في كل مكان، انتشت الريح برائحة الشهداء مسك وعَنبر، تعالت التكبيرات... لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله، هالات الأبرياء نور ملأ الجفون دموع، وزفير نارِالغدر طال حُطام النفوس، فالخيانة أمر لا يمكن تقبله من أي أحد مهما كان الابتلاء كبيرًا! فكيف إن كان من شخص ذو ثقة؟! حسبنا الله ونِعمَ الوكيل في كل نفس باعت ضميرها بثمنٍ بخس،

وطوبى للتراب الذي شرِب نخبَ الشهداء حتى ثمل، طوبى للسحاب الذي راقص أرواحهم دون تعب.

انتظرنا قرابة النصف ساعة دون حراك أو القيام بأي ردة فعل، كنّا نبحث عن صوت يشعرنا بالأمان، صوت ندرك من جراء سماعه أن الخطر قد انتهى، إلى أن سمعنا صَافرات سيارات الإسعاف، فخرجنا حينها من قوقعة الخوف كي نساعد فريق الدفاع المدني في إنقاذ مَن صافحه الموت... كان كل شخص يبحث عن صديقه، عن أخته أو عن ابنه، وهو يحاول التعرّف عليه بين الوجوه المُضرجة بالدماء... الجميع كان يبكي، والصراخ سدّ المسامع دون إستثناء! رأيت أم حسين عاملة

الكافتيريا في مقصف الجامعة مرمية على الأرض بلا حراك، لقد كانت بجانب حائط الممر الموصل الى مكتب شؤون الطلّاب، وبجانبها صينية كان عليها فنجان قهوة وكوب ماء امتزجا بدمائها الدافئة.. قمتُ بِالإنحناء لأتفقد حالتها، مسكت كتفها وهززته بشدة ورحت انادي عليها بصوت قوي:

- أم حسين..... أم حسين، هل أنت بخير؟

رائحة الهال أخبرتني أن تلك القهوة آخر ما قامت به أم حسين، بالرغم من مسؤوليات أولادها الخمسة وطلبات زوجها العصبي التي كانت لا تنتهي، بالرغم من محبة جميع الموظفين لها والناس الذين يحيطون بها ماتت وحيدة.... وحيدة ماتت! بل ماتت برفقة فنجان قهوة وشربة ماء، ذاك اليوم لم ينتهي بعد... لقد كان هناك خبر سيء يخص زوج شقيقتي أيضًا، خبر مفجع طغى على كل ما مر بنا من مشاعر...

في الحرب يطعنك الموت ألف مرة قبل أن يُجهزَ عليك!

- شريف ...شريف يا بني، ما بك؟

والدي واقف أمامي ينادي علي بصوت خافت، وأنا غارق في بحر ما مضى بنا من أيام عصيبة، حفرت الأمواج في ذاكرتنا أحداث حزينة تجعلنا نعيشها في كل لحظة! صوت أبي أعاد بي إلى العزاء حيث الناس ما تزال تتوافد إلى منزل أهلي للقيام بالواجب، وبكل هدوء أجبته:

- نعم أبي خير! هل هناك شيئ؟
- بني، الماء شارفت على النفاذ ولقد اتصلت بأبو العز صاحب صهريج الماء كي يأتي ويملئ خزان الدار.

يا إلهي، ماذا أقول؟

عندما يقع المرء تنهال عليه الضربات، وها أنا ذا... وقعت والضربات تنهال عليّ من كل جهة! صهريج ماء الآن يعني المزيد من رمي المال، المزيد من المصاريف، المزيد من القلق، المزيد من العمل والمزيد المزيد من الجهد المقتول ونحن في نفس المكان لا نتقدم! بل بدأنا بالتراجع إلى الخلف حقًا!

هناك أشياء كثيرة بإمكانها أن تكون قاتلة دون أن تزهق قطرة دماء، أشياء تثقل الروح هموم وجراح من الصعب جدًا شفائها مهما مر عليها الزمن، بالمقابل هناك شيئ مفقود يسرق السعادة من عرين اللحظات التي نعيشها! لنضحك بعدها لأتفه الأسباب وإلى أسخف الدعابات!

كل شيء بمقابل

جروح الجسد تلتئم مع الزمن وجرح الروح يلازمه الألم،
أناقة الهندام رخيصة أما الأخلاق الفاضلة فهي باهظة لا تقدّر بثمن.
لقد وصلنا في اللعبة إلى مرحلة العيش في الغابة، حيث لا قانون ولا رقابة ولا حساب لأَي شيء يُذكر! هنا أرض الوحوش البشرية والبقاء للأقوى، فمن يستطيع البقاء يبقى، ومن يستطيع المغادرة فليغادر، ومن يموت فليرحمه الله...
كان قد انتاب زوجتي بيسان حالة اكتئاب شديدة بعد حادثة الجامعة المروّعة فأصبحت تبكي لأبسط الأمور، حيث أخذ الذعر طريق إليها والقلق بات في أي فكرة تمر على بالها، غياب الأمن والأمان خلق

إضطرابات شديدة جعلت العيش في هذه المدينة معاناة كبيرة، بالإضافة إلى الصعوبة في تأمين الحاجات الضرورية هدمت القواعد الاجتماعية والعلاقات السليمة بين الناس.

شيئًا فشيئًا تغيرت جميع المقاييس، وانعدمت المعايير الأخلاقية في التواصل! لم يعد احترام الكبير والعطف على الصغير موجود، والحق ذهب دون رجعة بينما الغدر أتى عاري بلا قناع، الصدق لا محل له حيث الكذب ملأ مكانه، حتى أنا تعلمت الكذب بل امتهنته حدّ الاحتراف، بتّ أكذب بسهولة دون أي عناء لدرجة أن وجدت الكذب لعبة ممتعة مع تلك الأجواء المملة.

الحياة في الأزمات خلطت ما بين الخير والشر، ما بين الجميل والقبيح إلى أن أمست فوضى فيها القوي يأكل الضعيف.

في إحدى الجلسات المسائية من ليالي الشتاء الباردة، بدأت بيسان حديثها بكل صراحة حيث أعربت عن ندمها وهي تبكي قائلة:

- كان علينا أن نفكر في عملية الإجهاض يا شريف، الظروف حاليًا غير مناسبة أبدًا لقدوم طفل رضيع! لا نعلم ماذا تخبئ لنا الأيام القادمة فالوضع من سيئ إلى أسوأ....

تفاجئت حينها من طريقة تفكير زوجتي! وأخبرتها أن الأطفال هبة من عند الله تعالى، والإجهاض دون سبب هو حرام غير جائز في كل

الديانات السماوية، وأن هناك عائلات تحلم بأن يرزقها الله طفل مهما كانت ظروفهم سيئة... إلا أني عذرتها على ما وصلت إليه من حزن وقلق، فقد أخبرتني أن الظروف التي تُحيط بنا أو بالأحرى التي نحن نعيش داخلها غير لائقة البتّة بقدوم مولودٍ جديد، فَالرضيع بحاجة إلى حليب مجفف وتعقيم زجاجات الرضاعة بغليها على النار بالإضافة الى (حفاضات يومية) ومصاريف طبيب مختص وأدوية علاج إن أصابه مَرِض ومصاريف مواصلات سيارة الأجرة من وإلى المدرسة التي تعمل بها لاختصار الوقت وسهولة الحركة...

قاطعتها حينها البنت المدّبرة في رواق مسامعي أن جميع تلك القضايا لها حلول! قائلة لي بصوت قام على تغطية صوت بيسان:

- أولاً: على بيسان التقدّم الى مديرية التربية بمنحها إجازة دون مرتب بعد انتهاء إجازة الأمومة.

ثانياً: تكثيف الدروس الخصوصية في المنزل لتعويض المرتب الموقوف حتى إشعاراً آخر.

ثالثاً: الإعتماد على الرّضاعة الطبيعية بشكل كامل.

رابعاً: استخدام الأقمشة البيضاء الخام بديل عن (الحفاضات الجاهزة) كما كانت الأمهات سابقاً يستخدمنّ إياها قبل ذاك الاختراع المكلف.

خامساً: مازالت مستوصفات الدولة على قيد العمل في تأمين اللقاحات اللازمة وأطباء الأطفال متواجدة كذلك.

سادساً: تفائلوا بالخير تجدوه ولا يمكن أن تقتلوا روحاً بتلك البساطة.

قهقهت البنت المتمردة بسخرية وهي تقول:

- وهذا الذي نحن فيه ! أليست الحرب تقتل أرواح لا ذنباً لها؟

تدخلت معها البنت المتشائمة بأسلوب ساخر وصوتٍ خافت:

- عن أي حفاضات تتحدث المدبرة؟ ألا تعلم أن تنظيفها يتطلب الماء! لن أذكر الكهرباء حتى لا أنال المزيد من الشتائم...

صرخ عليهن صديقي عابد كعادته كي يحسم الجدل:

- كفاكنّ ضجيج، إن الموضوع لا يحتمل أكثر مما هو عليه دعوني أتولّى الأمر وعليكنّ المراقبة فقط.

اقتربتُ حينها من بيسان وأنا أمسح على رأسها، قائلًا:

- دعكِ من كل هذه المخاوف عزيزتي واعتمدي على الله الواحد الاحد، لا تفتشي في صندوق الذكريات الجميلة وتقارني بها مع الحاضر... ولا تُجهدي تفكيرك في متاهة المستقبل التي لا يعلم حلّها سوى الله، دعي القلق جانباً وامضي إلى الأمام... فطريق السعادة معبد بِالتفائل ومليئ بشاخصات الأمل، لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة... ما يزال لدينا منزل يأوينا وشموع

تنير ليالينا، والأهم من ذلك كله زوج يحبك بكل حالاتك ولا يرى في هذه الدنيا غيرك.

استطعت أن أفك عقدة ابتسامتها لتزين ثغرها اللوزي، قاضياً على آلامها بالمداعبة فقط دون تجاوز، مع أنه كان اليوم خميس وسهرة الخميس لها طقوس لا يعلمها سوى رجال حلب، لكني نجحت بالصبر إلى الغد! فقد كان الغد يوم الجمعة و لا بدّ من الإِغتسال في يوم الجمعة، ومن إِغتسل في يوم الجمعة غسل الله عنه البلاء ونحن فعلاً شعب ابتلاه الله شرّ ابتلاء....

عادات كثيرة كنا نمارسها تغيرت مع تلك الظروف الصعبة بل أن معظمها انحذف من القاموس العائلي، ومنها عادة سهرة يوم الخميس التي تقام كل ليلة جمعة إلى ساعات متأخرة، حيث يكون اليوم التالي عطلة واستراحة من العمل ولا ضير إن سهرنا على مشاهدة فيلم برفقة عشاء فاخر يليه نوع من الحلويات والفواكة والمكسرات، لكن مع انقطاع الماء المتواصل وغياب الكهرباء وارتفاع الأسعار لم يعد هناك ما يسمى سهرة الخميس.

أما يوم الجمعة فأصبح له برنامج مخصص يجب القيام به وإلا كانت كارثة، فقبل أن أفكر بِالإغتسال والطهارة للذهاب إلى الصلاة، عليّ تأمين المياه من بئر الجامع الذي يتصدر الحي وهو موثوق صحياً

بشهادة المستخدم، حيثما لا قدرة لي على شراء الماء من باعة الصهاريج المتجولة، ومع ذلك لا نقوم باستخدامها في الشرب بل فقط في الطبخ والغسيل، لكن لسوء الأحوال المادية كان بعض الناس يستخدمون مياه الآبار في الشرب بشكل مباشر دون تعقيم، مما أدى إلى انتشار حالات كثيرة من الإسهال وبعض حالات التهاب الكبد.

لقد أمسى العيش في المدينة معاناة حقيقية فبعدما كنا في حياة آمنة وبدأنا للتخطيط الى المستقبل، لقد توقفنا عن سُبل التطور بل تراجعنا أشواط، ومما زاد الطين بلّة ظهور نفسيات متعفنة وعقليات لا يمكن التفاهم معها مهما حاول بعضنا البعض!

مع تفاقم الأزمة اشتدت المعاناة كثيرًا، لقد أصبح تجار الأزمات الأوفر حظًا في تلك المحنة والأكثر شهرة، أما نحن للأسف نزيد جشعهم بطلبنا المستمر للمواد كافة دون مقاطعة أي منها! فكان المطلوب أكثر من المعروض مما جعل تحديد قيمة المادة وسعرها مبني على رغبة التاجر وطمعه في جني المزيد من الأرباح.

والغريب أن نضع كل ذلك في خانة العادي! كل ما حولنا تغير من الألف الى الياء، معاني الحروف تشوهت مع الحرب، والناس لها مطلق الحرية في أن تحلل وتركب كيفما تشاء سواء فهمت أم لم تفهم! والنتيجة دائمًا هي كلمة عادي، عادي لكل ما يحصل ونحن لا نملك سوى الأمل

الذي طال انتظاره، للأسف أصبحت الثرثرة التسلية الوحيدة لكل طبقات المجتمع.

بينما الواقع يقول: بأن الحياة مليئة بالتناقضات والمفاجآت سواء الضارة منها أو السارة، ومليئة بالأحداث من الجيدة إلى السيئة تنعكس علينا من خلال طريقة التفكير واتخاذ القرارات، وفي الحقيقة تعود النتائج إلينا بدروس وخبرات مدفوعة الثمن إما نفسيًا أو جسديًا أو ماديًا، فلا شيء يأتي بالمجان في هذا الزمن.

في إحدى أيام الجمعة أمسكتُ يد باب المنزل أصافحها تحية الصباح قبل ذهابي لأداء المهمة الأسبوعية، كنت أحمل بيدي الأخرى جالونات فارغة كي أملأها من ماء بئر الجامع، وإذ فجأة نزل من الأعلى صراخ جارتنا أم الجود، رافقه خبط أقدام كأنها دبكة شعبية، هزّ معه جدران المبنى القديم، ظننتُ للوهلة الأولى أنّ هدية صاروخية قادمة نحونا من جهة ما وراء الشمس!

لبضعة ثوان لم أكن أعرف ماذا أفعل! تجمدت في أرضي أنتظر ما الذي سيحصل بعد كل هذه الضوضاء، ثم أخذت أنطق الشهادتين بلسان متثاقل كي أستقبل الموت وأنا غير مستعد له!

مهما كانت الحياة صعبة نبقى خائفون من قدوم الموت، هكذا هي حقيقة الطبيعة البشرية، نظل متمسكين بالحياة إلى آخر رمق بالرغم من مرارة العيش الذي نتذوقه كل يوم!

لكن ما حصل حينها أن صراخ أم الجود لم ينقطع، وكأن القذيفة التي ستقتلنا بقيت معلقة إلى وقت آخر! رميت بالجالونات على الأرض ثم صعدت مسرعًا إلى بيتهم وأنا أصرخ: خير جارتنا! ماذا هناك؟

فتحت أم الجود الباب وهي تلهث وترتجف! وقفت كالتمثال للحظات لا أعرف ماذا حصل؟ أنتظر جواب لسؤالي... ثم أتى الرد:

- لقد أتت الماء والكهرباء معًا!

قالت الخبر وهي لم تصدق ما قالت، ثم ركضت إلى المطبخ لتُأكد لي أن الذي قالته صحيح وليست مزحة، فأخذت تفتح وتغلق الصنبور عدة مرات، وتضغط على قابس الكهرباء لترى النور مضاء وهي تقول:

- أرأيت؟ هذا حقيقي يا شريف الماء والكهرباء معًا.

ثم صاحبت النبأ بزغرودة حلبية عميقة زلزلت المبنى بكامله معلنة عن خبر لا يضاهى فرحته أي خبر آخر....

كان الخبر بالنسبة لي أمرًا جلل لا يمكنه المرور بسهولة هكذا، فقد استغرق مدة دقيقة لينتقل عبر السيالة العصبية من حاسة السمع الى الإدراك كون الطريق كان غير سالك بسبب تراكم الخيبات، فآخر

إجتماع للكهرباء والماء منذ أكثر من ثلاثة أشهر تقريباً، إنه العيد بأن يحضران معاً في زيارة واحدة حتى وأن كانت الزيارة لا تستغرق سوى ساعات معدودة.

أطلّت عليّ البنت العاطفية بثوبٍ طويل أبيض من الساتان له فتحة تصل الى الفخذ، أخذت تعزف على نبض قلبي معزوفة رومانسية وهي تُدندن:

- شريف يا عزيزي العلاقة الحميمة لاتنساها، الوقت مناسب جدًا فالماء الساخن متوفر دون عناء.

لم أعرها أي اهتمام حينها، فليس كل ما تقوله البنات صحيح- بنات أفكاري- غالبًا ألجأ إلى عابد في عملية إتخاذ القرارات.

لقد غيرت الأزمة الكثير من طريقة التفكير التي كنت أتبعها من قبل، هناك أمور أصبحت في المقدمة والتي كانت في المقدمة أمست من الكماليات لا ضرورة في إنجازها أو بالأحرى لم يعد هناك الوقت المناسب والذهن الصافي أو الشهية المفتوحة للقيام بها.

نزلت مسرعًا إلى المنزل كي أخبر بيسان الخبر السار فقد طرأ على برنامج يوم الجمعة تغيير ولا بد من انتهاز الفرصة للقيام في أعمال كانت متراكمة، كانت بيسان قد بدأت العمل فمع صوت أم الجود المزلزل عرفت أن هناك شيئًا خارق حصل!

لقد أتى النشاط دون بطاقة دَعوى، كان حضوره موثقًا في كل زوايا المنزل من الغسالة الآلية الى المكنسة الكهربائية... أما أنا فهرعت الى ملئ القدور والقوارير والجالونات وأي شيئ مقعر يمكنه احتضان المياه بأمان، ثمّ صففتها بانتظام إلى أن يحين استعمالها بلا تبذير أو إسراف فلا أحد يعلم متى تأتي الماء في المرة القادمة!

ثم ساعدت بيسان في تنظيف المنزل وقمت بكوي الملابس المكدسة، وقامت هي في صنع قالب من الكعك كانت فرا ت قد طلبته منذ أيام بل منذ أسابيع، وقمنا بشحن الأجهزة الجوالة على أكمل استيعاب بطاريتها...

كنت في حالة من الدهشة لرؤية الماء تنزل من الصنبور بكل بساطة هكذا! ونور الكهرباء ساطع في كل مكان في المنزل والفرن الكهربائي يشتغل والمكواة تعمل! وضجيج المكنسة يدوي بين الغرف وصوت الخلاط يملأ المطبخ! كل شيء كان مذهل! لقد اشتقنا إلى حقيقة وجود الأشياء لدينا وأنها ليست مجرد قطع للصمد أو الزينة.

لقد عرفت حينها أن القيمة الفعلية لأي شيء هي في استخدامه، فمثلًا ما قيمة مجفف شعر إن كنا لا نستخدمه في تجفيف الشعر؟ وما قيمة المكنسة الكهربائية إن كنا لا نستخدمها في التنظيف؟! أو ما قيمة

الغسالة الآلية إن كنا نغسل بطريقة يدوية؟! وإلخ من الأشياء التي نملكها ولا نستخدمها!

تدخلت العاطفية كعادتها في الإلحاح قائلة:

- شريف ألم أخطر على بالك؟ ها قد انتهيت من كل الأعمال ولم يبقى أي منها بين يديك! ألم يحن الوقت؟ لقد قمت بتوفير الجهد الذي كنت تبذله في تأمين المياه من الجامع، فما رأيك أن تستخدمه في إيقاظ مشاعر نائمة في طيّات الحرمان؟!

تلك المرة قاطعها صديقي عابد واعظًا إياها:

- المسألة يا عزيزتي ليست بالوقت أو العمل أو كل ما ذكرتيه،

المسألة لا تعني شريف فقط! بل تعني زوجته أيضًا، فإن كانت متعبة بعد كل هذا العمل عليه أن يقدّر ذلك! أو غير مهيأة نفسيًا فيجب تقديم المراعاة والاهتمام من ناحيته، الأمر يحتاج رغبة الاثنين وليس واحد.

في كل الأحوال ما حصل كان متوقع حتمًا، فقد انقطعت الكهرباء مجددًا بعد ساعتين من قدومها وذهب كل ما قيل أدراج الرياح.

وقبل حلول المساء كانت الماء مقطوعة أيضًا، كون عمل محطات تنقية المياه وضخها إلى المدينة متعلق بوجود الكهرباء، وقدوم الكهرباء متعلق بعمليات الإصلاح التي تتم على المنظومة الكهربائية المسؤولة على تغذية المدينة، والمنظومة الكهربائية يتم استهدافها كل فترة بقذائف

من طرف الجهات المعارضة! حيث ما يلبث أن يتم إصلاحها حتى تتعطل من جديد، بالإضافة إلى أن تلك المنطقة تعد من المناطق الخطرة وتحت خط النار، واللجنة التي كانت تذهب إلى تلك المنطقة للقيام بعمليات الإصلاح كأنها تذهب إلى الجحيم، أرواحهم بكفهم ولا يعلمون إن كانوا سيعودون أم لا! ألا يستحقون منّا التحية والتقدير؟

هناك أيضاً مَن يتوجب أن نحييه بأعطر التحايا، أكملت عنّي البنت الواقعية وهي تنشد أمام الأخريات:

ألف تحية وسلام للرّجال الذين أصبحت متاجرهم الأرصفة والنواصي...

تحية لكلّ شخص لرزقه ساعي وهو للخطر غير مبالي

تحية لكل صاحب دُكان لم يسمح للطمع والجشع أن يكون له موالي

تحية لكل من عرف التأقلم مع الأوضاع السيئة، ولم يعد ذو طباع مزاجي...

تحية للنازحين الذين ودّعوا منازلهم والمباني

تحية لفريق المتطوعين وَلجميع من يقوم بأعمال الخير وينادي

ألف تحية وسلام لكل من بقي في حلب صابراً صامداً يُعاني.

صفقة طلائعية لأحلى بنت من بنات أفكاري في هذا الظرف السيئ، فهي دائماً تحاول أن تكون في أبهى طلّة رغم الشوائب التي لحقت بمرايا الروح المشعورة.

بعدما فشلت محاولات الجهات المختصة في استرجاع الكهرباء الى مدينة حلب غرقت المدينة لعشرة أشهر في ظلام دامس، والموّلدات الصغيرة التي تعمل على المحروقات الذهبية لم تعد تفي حاجة أصحاب المحلات كذلك المواطن الذي يَملك مخزون احتياطي من العملة الصعبة بات يتطلب المزيد من الرفاهية، وَلصعوبة تأمين مادة المازوت أو البنزين، ومن أجل الليالي التي قضاها أصحاب السيارات نائمين داخلها أمام محطات الوقود حتى يحين دورهم لَملئ خزاناتها بالبنزين أو شرائه لتشغيل المولّد الآلي المغذي للكهرباء... اقترحت لجنة مختصة حكومية مشكّلة في محافظة حلب بتشغيل مولدات الأمبير في المحافظة والتي تقوم كل مولدة منها على تغذية عشرة منازل تقريباً، بحيث يتقاضى صاحب المولدة مبلغ عن كل واحد أمبيرأسبوعياً على أن يحدد عمل المولدة لمدة إثنا عشرة ساعة يومياً، وتحدد كمية المازوت لكل مولدة بألف ليتر شهرياً...

وَأوجبت اللجنة على أن تكون المولدة محققة لشروط السلامة البيئية، بمعنى أن لا تصدر ضجيج أو دخان، اللجنة قلقة جداً على البيئة والجو

المحيط بنا جزاهم الله كل خير، مع الجدير بالذكر أن كل واحد أمبير يقوم بتشغيل شاشة تلفاز قياس اثنان وثلاثين بوصة وإنارة ثلاثة مصابيح توفير طاقة بمقدار مئة شمعة فقط.

أندهش حقاً من المعلومات السابقة! فبالرغم من المآسي التي تُحيط بنا، ما زلنا مهتمين بأدق التفاصيل، أظنّ بل أنا على يقين أن هناك أمور علينا الاهتمام بها أكثر من أمبير وفولت و باقي الصحبة....!!

على كل الأحوال عائلة الأمبير تلك لا تعنيني أبدًا، فبعد دراستها من جميع الجهات استنتجت أنها لا تمدّ لي بأية قرابة ولا رحم بيننا على الإطلاق لأقوم بوصله، فأنا كموظفٍ شريف (لكلِ إمرإٍ من اسمه نصيب) أتقاضى راتب ثابت لا يستطيع تأمين الاشتراك الباهظ في تلك الرفاهية التي تبتلع نصف الراتب!

فَالحاجات اليومية العادية من طعام ومواصلات وشراء الماء من صهريج خاص للأمور الطارئة... الخ، بالإضافة إلى دفع قيمة أَجار المنزل اَلتي تستقبل الراتب من أول الشهر بمراسيم تليق به، هي مَسوؤليات ثقيلة أحملها على عاتق ظهري وحيدًا بعدما تقدّمت بيسان الى مديرية التربية بمنحها إجازة لسنة كاملة دون مرتب، عسى إلى وقتها تنتهي الحرب! في حين بَقت مستمرة بإعطاء الدروس

الخصوصية في منزلنا -كما أشارت عليّ البنت المدبرة- لَتأمين مصروفها الشخصي.

ومنه تمّ تكثيف إستشعارات حاسة اللمس الى أعلى طاقتها بحيث جعلناها نافذةً تطلّ على ما نريد الحصول عليه من داخل أركان الَخزائن والرفوف، وَالقيام على الالتزام بالعادة الصحية القديمة وهي النوم باكراً والصحو باكراً مع الضوء الطبيعي كما كانوا يعيشون الناس قبل اختراع الكهرباء والمصابيح الضوئية.

هناك أشياء أكثر ضرورة من الأمبير وغيره،فما فائدة أن يكون المصباح مضاء ونحن جياع! ما معنى أن تكون الثلاجة في حالة تشغيل وهي فارغة! كيف استحم بماء ساخن ولا يوجد ماء متوفر للشرب أو للطبخ! أسئلة لا أجوبة لها لأن السؤال هنا غير مناسب على أرض الواقع.

الحمد لله يا رب على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى والتي للأسف لا نُقدّر قيمتها إلا بعد غيابها، فالماء حياة في كل الفصول وهو المصدر الأساسي للعيش والكهرباء نعمة نستطيع من خلال استخدامها الحصول على الراحة والرفاهية في العيش.

تعالت الأصوات من حولي، ثم فقدت بعدها سلسلة الحمد بين أكوام الضجيج الذي حدث فجأة! لقد دخل رجلان في مشادة كلامية رفعت

حدة الأجواء وسط المعزّين داخل منزل أهلي، أحدهما وقف غاضب يقول بلهجة مناطق أهل الجزيرة، حتى أني ظننت لوهلة أنه من أقرباء بيسان:

- إلى متى؟ لم يعد العيش يُطاق في هذه المدينة، نحن أموات هنا ولا أحد يشعر بنا! نحن أشباح، أشباح تمشي...

قاطعه الرجل الثاني بصوت أعلى وبلهجة حلبية ثقيلة، ظهر معها غريبًا عن المنطقة:

- إن لم يعجبك الوضع ارحل ودعنا نعيش بهدوء، الطريق ما يزال مفتوح أمام الجميع ولا أحد يلزمك على البقاء!
- إلى أين أرحل يا رجل؟! كل خطوة لها ثمن.

قالها والدموع محبوسة وراء الأهداب ثم رحل من مجلس العزاء وكأن شيئًا ما حدث! ثمّ تبعه الرجل الآخر بعد دقيقة دون أن يلقي علينا السلام حتى!

لحظات من الفوضى أخذت الجميع في جولة نقاش حاد، بعضهم كان مع الرجل الأول وبعضهم كان مع الرجل الثاني، ثم أفضت الجولة على عبارة حسبنا الله ونعم الوكيل، لم يفوز أحد الطرفين بالمبارزة ولم يتفقا على شيء، هكذا نحن دائمًا من الصعب جدّا أن نتفق، بل اتفقنا على ألا

نتفق... بينما أنا رحت أراقب بصمت كأني تمثال منصوب وحيدًا في العراء... في الحقيقة:

أقسى الكلام أن تلوم نفسك وأصعب العتاب على كلمة خرجت ولم تعد.

الموقف السادس

لا بدّ من التغيير

بعد انتشار طاعون غلاء الأسعار الذي تفشى على جميع المواد الغذائية أولًا، وثانيًا على الأدوية ومتطلبات العلاج الضرورية، ومع الاستمرار في قطع الكهرباء والماء بشكل لا يُصدق! ناهيك عن صعوبة تأمين مادة الغاز والمازوت التي بات جلب تلك المواد يتطلب صفات المارد السحري... صار الوضع المعيشي في المدينة مزري للغاية.

الحياة في حلب أمست أشبه بسيناريو كتبه شخص سكران في حالة اللاوعي مع الواقع، والجميع لا طريق أمامه سوى التأقلم على التنازلات والتعايش مع بورصة الفاعل والمفعول، كل ما تطلبه موجود بأسعار خرافية وخاصةً الخضروات والفواكه واللحوم مما جعلنا نعتمد

في تناول الطعام على البقوليات، البرغل وَالنشويات كالأرز والمعكرونة.

لكن مهما اختصرنا يبقى الوارد لا يغطي الضروريات! لذلك كان علي التفكير لوحدي هذه المرة دون الرجوع الى عصابة بنات أفكاري في عملٍ أقوم به بعد دوام الجامعة، والحمد لله على رضاه كنت قد بدأت العمل محاسب في مقهى بالقرب من ساحة سعد الله الجابري، صاحِبه والد إحدى الطلاب الذين أُحاضر لهم، يبدأ الدوام من الساعة الرابعة عصراً حتى العاشرة ليلاً وبذلك أصبحت مُلزم للخروج صباحاً من المنزل، ولا أعود إليه حتى انتهائي من العمل الإضافي أي عندما يكون الوقت متأخرًا في الليل....

لا بأس في ذلك، فمنزل أهلي قريب جداً من منزلنا وإن احتاجت بيسان شيئاً سيكون التواصل معهم سهل بتواجد جود المرسال السريع بينهما، فأحياناً تنقطع الاتصالات الأرضية فجأة وبلا سبب، كذلك الجوّال لم يعد في خانة الثقة كون أبراج تغذية الاتصالات الجوالة تتعرض للدمار الواحدة تلو الأخرى، مما يجعل الاتصال صعب في بعض المناطق ومنطقتنا من تلك المناطق، بالإضافة إلى أن الأنترنت مقطوع كذلك من خمسة أشهر تقريباً أو أكثر، في الحقيقة لم أعد أذكر المدة بالتحديد.

كل أولئك استطعنا أن نتأقلم على غيابهم ونعيش دون استخدام أدوات التواصل الحديثة بحيث عرفنا كيف أن نصنع البدائل عنها، لكن الذي يشغل تفكيري بشكل دائم هو تأمين ما يتطلبه كل يوم من خبز...

نعم خبز.....

الخبز مادة غذائية يومية يأكلها الفقير قبل الغني وعليه الحضور على جميع الموائد، فبالرغم من ارتفاع سعر الربطة أحيانًا الى مئة ضعفها، لا يزال الخبز يتصدر قائمة الطعام، حتى وإن أتت ألف نسخة من الملكة ماري انطوانيت و قالت مقولتها الشهيرة أثناء الثورة الفرنسية آنذاك (ليتناول الشعب الكعك بدلاً من الخبز) لن يُغير من شهية المواطن الحلبي للخبز نصف درجة مقابل أطنان من الكعك...

الشعب الحلبي معروف بكمية استهلاكه الخبز دونه عن غير شعوب باقي المحافظات السورية، فإلى جانب كل صنف طعام لا بد أن يكون الخبز متواجد على المائدة دون أي نقاش أو جدال.

والوقوف داخل طابور الانتظار أمام الفرن من أجل الحصول على ربطة خبز لا يتجاوز فيها العشرة أرغفة أصبح معاناة يومية تأخذ من الوقت ساعتين أو أكثر قبل الذهاب إلى العمل، وأحيانًا كانت بيسان تنزل تقف في طابور النساء كونه أقل عدد من طابور الرجال كي يأتي دورها بشكل أسرع وننتهي من تلك المشكلة اليومية، ولكن لم يعلم أحد

كيف كنت أشعر حينها مع تلك الوقفة، ازدحام وفوضى ونظرات ثاقبة نحوها كانت تقتحم كياني الممزق المهترئ، مع كل ربطة خبز تجلبها بيسان هناك غصة تطعن روحي وتقتل المبادئ التي تربيت عليها.

ثمة أمور تحدث في المدينة كفيلة بأن تسرق مني شيئًا لا يمكن الإفصاح عنه، أمور قتلت داخلي أفكار لتولد مقابلها أفكار أخرى لا علاقة لي بها! إلى أن غيرتني رويدًا رويدًا دون أن أدرك ذلك، ثم وجدت نفسي أني تغيرت! أنا لست أنا، أنا شريف ولست بشريف.

أشكر أمي التي أنقذتني من مشكلة تأمين الخبز، فقد قررت ذات صباح تحضيره في المنزل، مثلها مثل الكثير من سيدات حلب اللواتي اتجهنّ إلى تحضير الخبز وطهوه في المنازل كي يتغلبنَّ على تلك الأزمة، فإذا توفر الدقيق والغاز يتمكن تأمين الخبز بما تيسّر من مجهود...

يعتبر الذهاب إلى بيت أهلي وإحضار بضعة أرغفة من الخبز المنزلي أسهل بكثير من إحضاره من الفرن، حتى وإن كان تأمين أنبوبة الغاز فيها مشقة وقصة مختلفة عن تأمين الخبز من الفرن، ما يزال الحل الأنسب هو الخبز المنزلي...

لا بأس إن اختصرنا بعض الوقت والمجهود في الحصول على الأساسيات مقابل أشياء لا تُذكر!

كم كان جميل التخلص من ذاك الشعور القاتل عندما أخبرتني أمي أنها أرادت خبز الخبز في المنزل، لقد طرت من السعادة عندما أكلت الخبز من صنع يديها، فأنا لم أكن أجرأ أبدًا على تناول قضمة واحدة بهناء من الخبز الذي كانت تحضره بيسان من الفرن، فقد كان مليئ بالهوان الذي يخنقني مع كل مضغة منه.

غصة وراء غصة تجعلك تنفر من الأشياء التي تحبها مهما تكن عزيزة عليك.

وبين كلّ ما حدث لاحظت على نفسي ظهور هواية أهرب بها من بنات أفكاري، اكتشفتها بعد عبوري عدة حواجز ونيلي عليها أوسمة فخرية... ألا وهي التأمل، نعم للتأمل مفعول سحري يفك شيفرة أصعب النفسيات، وأنا في إحدى تأملاتي تجاوزت الخط الأحمر، ورحت أنعي حالنا على ما نحن نعيشه! وأقارن بين الماضي والحاضر أما المستقبل فلا مكان له هنا.

صراخ ليس بغريب كان يحاول ردعي عمّا أنا فيه:

- قفْ عندك يا شريف، هذه الهواية التي اكتشفتها بعيداً عنّا لم ولن تنال سرورنا أبداً، عد إلينا ودعكَ من تلك الهلوسات.

إنهنّ البنات كالعادة، لكن هذه المرّة خائفات عليّ من ثورة نفسي عليهن وعلى صديقي عابد، طلبت منهن حينها أن يتركوني وشأني، لم أعد قادر على المزيد من تقبل الأفكار والتفكير بها.

أفكاري تضرب برأسي دائماً وأنا ما عدّت أحتمل شغب بناتهنّ المتواصل، وصديقي عابد في إجازة مفتوحة.

إلا أن زوجتي بيسان أرادت أن تحل بعض الأمور المعقدة فأتت باقتراح كان لا بد من طرحه، قائلة:

- ابنتنا فرات يا شريف الأفضل لها أن لا تذهب إلى المدرسة في الفصل الثاني، عليها أن تبقى في المنزل... هنا أسلم.

لم أجيبها بأي حرف ولم أسأل حينها كيف ستتابع الدروس، ولمَ هذه الفكرة مرت على أبواب القرار في تلك المرحلة! فقد كنت أعرف الإجابة ولست بصدد إلقاء الكلمات في وقت كان الفعل أقوى.

ومع ذلك تركت بيسان تلقي ما عندها متابعة:

- بعد أصداء القصص التي نسمعها كل يوم عن عمليات خطف الأطفال وتجارة الأعضاء البشرية وحوادث الاغتصاب المتكررة لم يعد الشارع آمن لها، فرات في الصف الثاني الإبتدائي وأنا أستطيع متابعة المنهاج الدراسي الكامل معها كونه ما يزال بسيط... هكذا أفضل.

النازحون من مناطق حلب القديمة يقيمون في بعض المدارس الحكومية، ومدرسة فرات كانت من المدارس التي لجأ إليها النازحون من المناطق المنكوبة، فامتلأت الصفوف بهم و تحولت المدرسة إلى سكن مؤقت يؤمن لهم المأوى، لذلك تساهلت مديرية التربية مع الطلاب من ناحية الدوام المدرسي، على أن يحضر الطالب في موعد الإمتحانات الفصلية المقررة لأداء الامتحان كما يجب.

مع قدوم الفوضى إلى أحياء المدينة رحل الأمان، انتشرت حوادث السرقة والخطف والاغتصاب كما قالت بيسان، لكن الذي لم تقوله أن كلها كانت مقيدة ضد مجهول! هنا عليك أن تكون حارس شخصي قوي لنفسك ولعائلتك، لا أحد مسؤول عن غياب الآخر ومشاكله، فربما يبتلعك النهار كما الليل، أو تستيقظ مرمي على أحد النواصي مسلوب لإحدى أعضائك الجسدية أو أي شيء آخر تتوقعه أو لا تتوقعه.

بيسان وفرات في المنزل فلا داعي للخروج منه إلا للضرورة القصوى، لقد حاولنا قدر الإمكان أن نُبعد طفلتنا عن الأجواء المأساوية التي تحيط بها في المدرسة من فقد أصدقائها واحداً تلو الآخر!

مرّات عديدة أتتنا تتنهد خائفة تروي لنا قصص مرعبة لا تناسب سنها، واحدة على زميل لها في الصّف اختفى فجأة! وإذ هو تعرّض لعملية إختطاف وأهله لا يعلمون عنه شيئاً، وأخرى على صديقتها التي ماتت

مع والدتها عندما كانتا تعبران الشارع قرب منطقة أمنية تصادف فيها إطلاق الرصاص مع جماعات مسلحة، أما آنسة جوري الصف الخامس فقد داهمها لصّ أثناء عودتها إلى المنزل و قام على سرقة المحفظة بعد أن هاجمها وكسر ساعدها الأيسر، ومثلها الكثير من الأحداث المؤلمة التي تسمعها فرات كل يوم...

فرات طفلة حساسة جداً، أصبحت في حالة حزن دائمة، والدموع تحرق وجهها الصغير، تبكي بألم وهي تسأل والدتها:

- لماذا لم نعد نذهب إلى الحديقة؟! لماذا الناس هنا لم تعد تحب بعضها؟ أمي، هل أتى الأشرار إلى المدينة؟

أسئلة كثيرة غامضة بل ألغاز صعبة الحل بالنسبة الى طفلة ولنا أيضاً، البعض منها كنّا نحلّها بأسلوب المراوغة، أما الباقي كنا نقوم بتعليقه على مِشجب التجاهل حتى بات مكدّس بالخيبات.

لقد أصيبت فرات بحالة نفسية سيئة تصيب الأطفال في حالة الخوف والفزع، لا عجب فنحن الكبار أمست حالتنا النفسية سيئة جراء الخوف المستمر طوال اليوم، فما بال الأطفال من ذلك؟!

ذاك الخوف الذي ينهش قوانا دون أن ندرك ما يفعل بنا، الخوف حوّلنا إلى كائن ضعيف لا حول له ولا قوة في أي موقف نتعرض له!

نحن نعيش مع الخوف بشكل لا يصدق! ننام مع الخوف ونأكل مع الخوف، في بيوتنا نخاف وكذلك في الشارع! نصمت لأننا نخاف وقد نكذب لأننا نخاف أيضًا، نحلم بخوف ونفكر بخوف، نخاف من الفقر ونخاف من المرض والألم، حتى الموت نخاف منه بالرغم من أنه الخلاص الوحيد لما نحن نعيشه في المدينة...

بارعون في الخوف وملحقاته فنحن لا نعرف سواه.

بيسان كانت خائفة أيضًا على أهلها، فمنذ فترة طويلة انقطعت الإتصالات بينهما، ولم تسمع عنهما شيئاً سوى الأخبار التي تتحدث عن اقتراب داعش من مدينة القامشلي، مما جعلها في حالة هلع وتوتر دائم عليهما ومن أن يصيبهما أي مكروه وهي بعيدة عنهما، لكنّ قلقها لم يستمر طويلاً إذ استطاعا الهروب والنجاة بأرواحهم في آخر لحظة.

أذكر تلك الليلة الشتوية التي وَصلا بها إلى حلب حيث رأيتهما للمرة الأولى، كنت عائدًا بها الى المنزل بعد قضاء يوم شاق في العمل والركض وراء تأمين ما عليّ تأمينه من لحظة فرح لابنتي فرات مقابل لقمة اشتهتها أو لعبة طلبتها مني بحياء...

كان الجو رمادي منقط بحبات المطر الخفيفة، والشوارع يكسوها الظلام من كل جانب إلا الطريق الذي أسلكه في كل مرة، فقد حفظت أين يكون المنعطف ومتى ينتهي الرصيف واعتدت مكان كل حجر وموقع كل

مطب لدرجة أني أستطيع المشي وأنا معصوب العينين، وهذه الاحترافية لا يقدر لها أي شخص وخاصة إذا كان غريب عن المنطقة. صرت قريبًا إلى حاجز عسكري منصوب على مدخل إحدى الطرقات، بل كنت أسير أمامه إلى أن استوقفني شاب يرتدي بذلة عسكرية وعلى كتفه بندقية قائلًا بصوت يدل على حداثة عمره:

- مهلًا، قف...! قل لي من أين جئت وإلى أين تذهب؟

وبنظرة واحدة عرفت على الفور أنه عنصر جديد قادم إلى ذاك الحاجز، فهذه المرة الأولى التي رأيته على نقطة التفتيش تلك، فأجبته بكل هدوء وثقة أخبره فيها عن إحداثيات خطواتي الماضية والقادمة، لكنه أراد المزيد وطلب مني رؤية البطاقة الشخصية.

بطاقتي الشخصية لها حكاية غير كل حكايات البطاقات الأخرى، فقد خاضت معارك مع مختلف أنواع المنظفات، القوية منها ذو الرائحة العطرة ومع مختلف مساحيق الغسيل وكل ما وقع عليه يدي حينها، كونها وقعت في مكان وجب التنظيف المطلق والتعقيم، مما جعلها ضعيفة لا تحتمل أي قوى خارجية قد تمارس عليها، وأنا أعرف ذلك تمامًا... لذا أحاول المحافظة عليها وعدم خضوعها لأي طارئ يستنزف المزيد من صلاحية البقاء، حيث لم يكن لدي الوقت للذهاب

إلى الجهات المختصة لتقديم طلب على تغييرها واستبدالها بأخرى جديدة!

لذلك مكانها دائمًا في جيب سترتي من الداخل طرف الصدر، لتكون قريبة إلى نبضات القلب الغير منتظمة بسبب الحالات الفجائية والصدمات، فتعمل هي على تنظيمها بأكبر قدر ممكن من الوطنية.

مددت يدي كي أخرج البطاقة، ظنّ العسكري أني سأخرج شيئًا آخر، صرخ في وجهي بعد أن قام بتوجيه بندقيته نحوي:

- قف عندك ولا تتحرك.

قلت له حينها أن لا يقلق، فأنا لا أحمل سوى البطاقة! أما عن حملي المسؤولية والهمّ والخوف والحزن وغيرها من الأحمال لا تعتبر شيئ مقابل ما أحمله من جذور وطنية.

أخرجتها بحذر من المكان المصون ثم قدمتها للعنصر بكل لطف:

- تفضل... هذه هي البطاقة الشخصية التي طلبت!

أخذها من يدي ومعالم السوء بدت على تقاطيع وجهه الأسمر الصغير، ثم قام بتسليط الضوء عليها بواسطة مصباح يدوي، فبدت كما هي دون مبالغة في الزيادة أو النقصان، بطاقة مهترئة أكل عليها الدهر وَشبع! مما جعلني في موقف لا يحسد عليه، وما توقعته حصل وفوقها حبة مسك! رماها في يدي قائلًا ونيران الغضب تشتعل في عينيه:

- ما بك يا رجل؟! أهذه بطاقة تحملها؟! كم حرب خاضت هذه البطاقة؟ وكم من لعنة وقعت عليها؟ لماذا هي هكذا مخربشة مثل وجهك الذي لا يحمل أي تفصيل!

أحسست حينها أن طعنة خبيثة خرقت شرف تاريخي العظيم، مما أوصل الدم لدرجة الغليان في جميع أوصالي، فما كان إلا من إحدى بنات أفكاري أن تقوم في زجي داخل موقف ما كنت أحبذ دخوله يومًا ما! حيث أجبته بكل قوة تنم على جهل كلمة الصمت بكل معانيها:

- لن أسمح لك أن تتكلم معي هكذا، وتلك البطاقة تعني لي أشياء ثمينة قد لا تعرف أنت معناها.

كان رده غير متوقع أبدًا، ابتسم وقال بلهجة تحمل من السخرية الخفية ما يكفي لفهم ما يريد الحصول عليه في تلك الليلة:

- كفاك فلسفة... فالجميع هنا أصبح فيلسوف عصره، سمعتك بما يكفي! والآن أعطني ثمن علبتين سجائر مع عشاء محترم يليق مقامك وإلا....

قاطعته بصوت تخطى حاجز الحماس بخطوات قبل أن يكمل جملته التي حملت صيغة التهديد الواضح:

- وإلا ماذا؟! قل ماذا ستفعل؟

كنت أقف وحيدًا، فبنات أفكاري هربت مني وصديقي عابد متواري عن الأنظار! بينما تابع المجند سخريته قائلًا:

- ما هي قصتك هذه الليلة يا أستاذ شريف؟ ومن أنت حتى تتجرأ وتكلمني هكذا؟ ربما على رأسك ريشة ولم أراها يا ذكر البط أم أنك تود زيارة بيت خالتك؟

كلمة منّي وكلمة منّه إشتددت أنفاس الغضب بيننا، وإذ فاجئني بعدها بصفعة قوية على خدي صاحبها خُدّرٌ طعن الوطنية في الصميم، ثمّ ألحقها بلكمة على معدتي عن طريق أخمص البارودة، جعلتني ألتوي منها وأتقيأ ما تبقى من شموخ كنت قد إحتفظتُ به الى يوم تحية العلم.

خرج الضابط المسؤول من غرفته المسبقة الصنع المنصوبة وراء الحاجز، كي يتحرى سبب الضوضاء التي شقت سكون الليل:

- ماذا يحصل عندك؟ لمَ كل هذه الأصوات؟!

انقلب العنصر فجأة إلى وضعية القط البريء بعدما خلع رداء الذئب الذي رماه تحت سابع أرض، ثم أجاب سيده:

- سيدي، زاوية بطاقته الشخصية مكسورة والصورة غير واضحة كذلك الاسم أيضًا، بالإضافة على هذا كله واقف يلقي المحاضرات يا سيدي الضابط!

اقترب الضابط بضعة خطوات فتعرّف على شخصي المحترم دون الحاجة للنظر إلى البطاقة الشخصية، ثم وجه كلامه إلى العنصر قائلًا له: هذا شريف أعرفه، دعه يمر على كفالتي.

وقبل أن أهم بالرحيل، دنا الضابط من أذني هامساً:

- عليك أن تخرج بطاقة جديدة يا شريف، أصبح لا بد من التغيير وإلا ستسبب لك المشاكل لاحقًا.

هناك بعض الأعمال لا تحتمل التأجيل، الأفضل أن تنتهي منها على وجه السرعة، وإلا لن تنال الوقت لفعلها فيما بعد.

لا أدري ماذا حصل لي حينها! لم أخبره ما فعله بي ذاك العنصر وماذا طلب مني أن أعطيه، خفت أن ينكر كل ما حصل بيننا إن أنا قمت على شكايته، نعم كنت خائف! خائف من شيء ما، بل من عدة أشياء!

ولا وقت للشجاعة هنا، كنت فقط أريد الوصول إلى منزلي بسلام.

فأجبت الضابط بالموافقة على ما قاله، وأنني سأقوم على نزع الفرصة السانحة من أحشاء الأيام القادمة كي تتم عملية التغيير بنجاح مطلق، مثلما قمت بتغيير الكثير من الأمور، لن أماطل أكثر بما أملكه من وقت فقد انتهت مدة الصلاحية...

ابتعدت عن الحاجز مسافة كافية بحيث جعلت من عابد يظهر قائلًا لي:

- الصفعة التي لا توقظك، تستحق منها المزيد.

أين كنت يا صديقي حين عندما كنت بحاجة لك! جعلتني ليلتها أبلع مرارة الموقف على أنه نصيب بعد أن قررت ألا أبوح به لأحد، فأن تقوم بتأدية دور السعيد أسهل بكثير من إفشاء الحزن والألم.

هناك أحداث الأفضل لها أن تبقى مدفونة، لا يمكن الحديث عنها حتى إلى أقرب الناس، لذلك قمت ليلتها على حفر حفرة بأسرع طاقة خيبتي ولملمت ما تبقى من كبريائي ورميته فيها ثم ولّيت ظهري لصوتِ الإستغاثة الخافت وأنا أبتعد عنها برباطة جأش ما عهدتها من قبل!

كنت أرتعش تلك الليلة بشكل مبالغ فيه، أوهمت نفسي أني أرتعش من البرد لكن الأمر غير ذلك أبدًا، من الصعب أحيانًا قبول ما مرّ على أنه واقع لا بد منه... بعض الأكاذيب بمثابة حبل نجاة لا يمكن إفلاته كي لا نسقط وَنصطدم بالحقيقة.

ليلتها تأخرت عن موعد عودتي إلى المنزل قرابة الساعة، وما إن إقتربت من كنيسة الحي حتى رأيتُ طيف شخصين، أحدهما رجل يرتدي ثوب طويل ويضع على رأسه شماخ باللونين الأبيض والأسود يغطي فيها الذقن والفم، أما الطيف الآخر فكان لسيدة ملتحفة بالسواد من رأسها الى أخمص قدميها، لم يكن يظهر سوى عينيها وقسماً من وجهها، كانت علائم التيه مرسومة عليهما بوضوح... يلتفّان في مكان ثابت مثل الرادار الذي يدور حول نفسه، يُحاولان التعرف على أية

إشارة تظهر داخل مَدارهما، معهما حقيبة سفر صغيرة مُغطّاة بالوحلّ دلّت عليهما في تلك الساعة المتأخرة على أنهما غريبَين ليسا من المنطقة، بل ليسا من المدينة كلها.

اقتربت منهما بحذر كي أسمع حسيس لهجتهما، لم تكن اللهجة الحلبية الثقيلة! هذا يعني أنهما ليسّا من منطقة حلب القديمة، المرأة كانت تبدو ضائعة تحاول أن تستدل على مكان ما في الظلام، بينما الرجل كان يحمل الجوال وهو يعبث بيده على أزراره، علّه يستجيب للجهة المتصلة ويلّبي النداء... لكن عبث! فَالخطوط مزاجها تلك الليلة لم يكن داخل التغطية المنشودة فهي غير مستعدة لتلبية الدعوة مع ذاك الطقس الرديء.

أنا بطبعي فضولي مهما حلّ بيّ من صدمات، و كما يقول المثل(يالي بغير عادته بتقل سعادته) أردت أن أَستطلع الأمر، فاقتربت منهما إلى أن ظهرت على شاشة بحثهما وسرعان ما سألت الرجل:

- هل تبحثان عن أحد أيها الحاج؟!

أجابني الرجل بلهجة غريبة عن لهجة أهل حلب بأنه يبحث عن منطقة اسمها العزيزية شارع الجلاء الواقع قرب منعطف النهر، ولقد كان مندهش من كون المدينة بهذه الحال الحزينة!

ما كان بي إلا وأن أبلغته بعض الكلمات بلا أية تفكير أو إدراك:

نعم ... هنا حلب ولمَ العجب ؟

حلب تُرحب بكم، أنت لست ضائع

الموت يقص الطرقات والشوارع

والبيوت ورق مقوّى...

هنا بقايا مدينة تَأن بصمتٍ وتتلوى

هنا الشعب صامد على الكروب والأهوال صابر

قلبه مليئ بالايمان، العزيمة قوية و الجباه عالية

نعم حلب ستبقى قوية بأهلها...

هم نبضُ شريانها الأوحد، هم عزها، مَجدها وأصالتها...

أهلاً و سهلاً بكم.

اقتربت مني السيدة كي تتأكد من ملامح وجهي المخبأة وراء عتمة الليل، وهي تسأل:

- شريف!! ألست شريف زوج بيسان؟!

انتقلت الدهشة إلى طرفي بعدما كانت تسكن أطلالهم بداية اللقاء، نظرت إلى السيدة بصمت بينما عيناي كانت تريد أن ترى وجهها الكامل عسى أن أستطيع معرفة المرأة التي عرفتني!

شعرت هي أني أطلب كشف وجهها كي أتعرف عليها، فسارعت إلى نزع الخمار ثم وقفت أمامي منتظرة أن أحذر من هي! أما الرجل لم

يصبر أكثر من ذلك وقطع علينا حل اللغز بابتسامة عذبة لن أنساها وهو يقول:

- بنيّ، نحن أهل بيسان ألم تعرفنا بعد؟

كانت دهشتي كبيرة على وصولهم إلى المدينة بسلام، لكن مقدار السعادة التي غمرتني آنذاك كانت أوسع لتغطي الدهشة بكل سهولة، كانت الفرحة واسعة لدرجة أنها استطاعت أيضًا تغطية مرارة الموقف المؤلم الذي مررت به قبل رؤيتهم!

الشعور بالفرح يعمل كالسحر في صيانة الحالة النفسية السيئة، إنه يجعلك تأخذ فرصة للتنفس لكي تحاول أن تبدأ من جديد.

إنها المرة الأولى التي ألتقي بأهل بيسان وجهًا لوجه، طبعاً ما عدا السكايب والفايبر أيام العز التي كنا نتصل فيها معهم كي نتحدث ونطمئن على بعضنا البعض...

حضناني بشدّة وشاركت الدموع العناق، كانا كالغريق الذي تعلّق بقشة وتلك القشة كانت مدينة حلب، مكان إقامة ابنتهم الوحيدة التي لم يبقى سواها كي يلجؤوا لها، فقد هربوا بأعجوبة من بطش داعش الذي وصل مدينتهم، تركا كل شيئ خلفهم لينجوا بأرواحهم ويصلان إلى شاطئ الأمان بالرغم من سوء المعيشة هنا! لكنها ليست بمستوى السوء هناك، يقول المثل: (مين جابك على المر، الأمر منه).

سبحان الله ! لم تأتيني الفرصة لزيارتهم في القامشلي فقد كانت طائفتها رافضة تماماً مشروع الزواج بيننا لإختلاف الأديان وما لحقها من عادات وتقاليد، لكن إلحاح بيسان حينها جعل من والديها يوافقان على الزواج، محذّرينها من غضب ذويها، لذلك لم نفكر يوماً بزيارة المدينة لتأتي تلك الحرب وتجمعنا مع بعض دون موعدٍ مسبق.

الموقف السابع

المرايا النقيّة لا تكذب

أرى جبل جليد تتقاذف نحوه حمم بركانية، تحاول إذابة التجمد بكل ما لديها من قوة نارية، لكن الجليد يقف لها بالمرصاد دائمًا، إذ يقوم على إطفاء الإشتعال بكل ما بداخله من برود، ولا يكتفي بذلك! بل ويقوم على تغطية مكان الحروق بطريقة سحرية وكأن شيئ لم يكن!...

أشعر أني ذاك هو الجبل المتجمد، وأن الجليد لن يذوب إلا إذا انفجر من تلقاء إرادته، في سيل من المشاعر المكدسة لأغوص بها مع نفسي حدّ الموت، علّه يجرف معه ما بقي مني ليصنع بها جبل جليد جديد في بلد بعيد لا جذور لي هناك ولا حبيب...!!

صوت بكائي أصبح مسموع في جلسة العزاء، لم أعد قادر على حبس آهاتي، والدموع وجدت طريق الألم حتى تخرج على العلن، عابد وحده يعلم لما كنت أبكي، بينما الجميع ظنّ أني بكيت على فراق عمي يونس، لا... أنا رجل مؤمن وأعرف أنه لا بد من الموت، لكن متى؟ وأين وكيف؟ لا احد يعلم سوى الله تعالى.

الذي يموت يلقى الراحة، بينما العذاب من نصيب الذين ما يزالون يحاربون الموت من أجل العيش.

قرأت مرة للإمام الغزالي:

"هذا الزمان كفيل بتغيير أي قلب مهما كان ثبات صاحبه."

ونحن في هذا الزمن كان الله في عوننا، نخوض كل يوم المعارك في سبيل المحافظة على المبادئ التي باتت تتلاشى يوم بعد يوم، إنه الجهاد بعينه أن تجاهد نفسك للحصول على الغنيمة من البقية الباقية، والتي تكون بمثابة جرعة من الأمل كي تستطيع الاستمرار في محاربة ما تحارب من أجله!

استطاعت بيسان أن تحصل على بعض تلك الغنيمة عندما أتت الحرب بأهلها إلى المدينة، فباتت منفرجة الأسارير بعد قدومهم بخير وسلام، وبدت ضحكتها كأنها عقد من الياسمين موصول بين أذنيها! فهي كانت

حزينة جدًا عليهما ومشتاقة لهما أيضاً، حيث أنها لم تراهما قرابة العشرة سنوات منذ زواجنا آنذاك.

عمي يونس والد بيسان ووالدتها تيريزا كانا قد ارتاحا عندنا و بدأت عافية جَسدهما تعود إليهما يوم بعد يوم، عائلة بيسان صغيرة فهي لديها أخ واحد يكبرها بثلاثة سنوات يعيش في إيطاليا، كان هنا في حلب من خمسة عشرة عام في بعثة للتنقيب عن الآثار في قلعة حلب، حيثما تواجد أيضاً حينها فريق من المنقبّين يحمل الجنسية الإيطالية باتفاقٍ مع الدولتين، ولقد كان الفريق يضم نخبة علماء الآثار وبينهم عالمة أكبر منه بثمانية سنوات، سرى بينهما تيار كَهرومغنطيس العشق، حولهما الى عصفوري الحب... فما إن انتهت البعثة الإيطالية من عملها حتى عادا معاً الى إيطاليا بعدما تزوجا هنا.

منذ بداية الأحداث في سورية طلب شقيق بيسان من والديه أن يأتيا الى إيطاليا ليعيشا معه، لكن يبدو أن أمي تيريزا لم تحبذّ الفكرة، فهي منذ وصول ذبذبات التجاذب بين ابنها والايطالية كانت معارضة بزواجه أجنبية من باب العادات والتقاليد (غير معروف اصلها من فصلها والعذرية غير مهمة في مجتمعهم) كما بررت حينها...

ما عدا ذلك إنّ قرار الاستمرار أو البقاء يعد من القرارات المهمة والقوية، فمهما قست الظروف على ذاك الوطن يبقى المواطن الحلقة الأضعف، لكن السؤال الذي يطرح نفسه! إلى متى؟

بعد فترة وجيزة من نزوح أبي يونس وأمي تيريزا الى مدينة حلب والمكوث عندنا أصبحا منّا وفينا، كنا نأكل من المعاناة معًا وَنتقاسم الصبر معًا... كنا نضحك معاً ونحزن معاً، ونسهر على ضوء الشموع معًا، كنا نتسامر عن الماضي الجميل ونقارن به الحاضر، أما المستقبل فلم نكن نملك الجرأة على فتح أوراقه...

كانا يذهبان إلى الكنيسة التي بجوار منزلنا، ثمّ يعرجان الى بيت أهلي لزيارتهما، لقد أصبحا أصدقاء رائعين... كان عمي يونس يلعب نرد الطاولة مع أبي بمهارة، إذ كان نادرًا ما يخسر الجولة بينما أبي كان يتقبل الخسارة بضحكة نابعة من قلبه نضحك عليها جميعنا، وبعد انتهاء المباراة بينهما، كنا نتابع السهرة بتحضير عشاء خفيف نتناوله سوية، بينما كانت والدتي وامي تيريزا في حوار لا ينقطع عن الحياة والعادات والتقاليد والمقارنة حولهم بين مدينة حلب والقامشلي... امتزجت العائلتين إلى درجة كنا نبدو فيها عائلة واحدة، لقد أمسينا في الحيّ مثال للتعايش مع بعضنا البعض ونحن نتبادل المحبة والود والاحترام.

صديقي عابد نصحني حينها على القيام بزيارة عاجلة إلى الجهة الأمنية كي يكونوا على إطلاع بهذا الأمر، فاَلجهات المختصة ترغب بأن تكون على علم في كل الأحداث التي تجري مع المواطن، أين ذهب؟ مع من؟ وإلى أين؟ أين يعيش؟ ومع من؟ وماذا يأكل؟ وكيف؟ إلى آخره من الأخبار التي تحب الأم أن تعرفها على أولادها كي تطمئن عليهم... وأنا أحببت بدوري أن أكون الولد البار وأسبق الجهات المختصة في تلك المهمة لأخبرهم بما يقلقون عليه، وأقوم بزيارتهم من تلقاء وطنيتي دون تكبدهم عناء الدعوة.

اخترت يوم السبت من العطلة الأسبوعية للأهرامات الحكومية كما أُسميها -ليست دوائر كما يدَّعون- لأن يوم الجمعة مخصص لتأمين المياه والإغتسال ثمّ الذهاب الى صلاة الجمعة، وبعدها قضاء باقي اليوم مع والدايّ والإطمئنان عليهما، أما باقي الأيام لا سِلطة لي عليها لإرتباطي في دوامي الجامعي الصباحي، أما عملي في المقهى فقد استولى على مساء كل أيام الأسبوع.

وصلت المبنى الأمني مضطربًا من بعض الخوف المعتاد، ثم دخلت الطابق الأرضي بهدوءٍ مطبق الفكين، أحمل بيدي بطاقتي الجديدة أتفاخر بها... تلك التعريفة الشخصية التي حصلت عليها بعد أن رفرفت روحي حولي في عدّة معاملات رسمية، فَأن تُخرج بطاقة شخصية

جديدة في هذه المدينة، أصعب من اِستخراج مُستحاثة من بطن حوت وهو مهدد بالإنقراض.

المهم... كان كلّ ما عليّ قوله كلمتين والسلام، إلا أن المهمة التي ذهبت إليها لم تكن كما ظننت، فقد أخذت مني الزيارة اليوم بكامله!

خرجت وقتها قريب الزوال على ما أذكر... دون وجهة أتجه إليها، ثمّ قادني شرودي في طريق رمادي الى متجر الأحلام الوهمية، وقفت حينها أمام المتجر كي أقرأ اللوحة المزركشة المعلقة فوق المدخل، كان مكتوب عليها عبارة (متجر الأحلام السحرية)، لاحظ صاحب المتجر التردد الذي ظهر عليّ، فخرج إلى الباب مع عبارات الترحيب قائلًا:

- تفضل لا تتردد، أهلا وسهلًا بك... هنا ستلقى طلبك من أي حلم ترغبه، ولك حرية الإختيار فيما تراه مناسب لك، لكن اعلم جيدًا أن الحلم الذي ستختاره غير قابل للتبديل بعدها أو الإعادة، لذلك اختر حلمك على تروي فهذا الوقت للأحلام...

أول ما خطر في بالي حينها حلم الأمن والأمان، فبحثت عنه بلهفة واضحة، كما الغريق عندما يبحث عن طوق نجاة في عرض البحر.

رد عليّ صاحب المتجر مؤكدًا: لا تبحث يا بنيّ، إنه مفقود هذه الأيام.

سألته عن حلم عكس ما أبحث عنه، كنت أريد أن ألهو مع البائع قليلًا:

- وهذا الذي يسمونه حلم الإثارة كالأفلام، أأَجده عندك يا عم؟

أجابني وكأنه قد عرف ما جال في خاطري:

- لا تقلق يأتيك بالمجان.

ثم تابعت معه: ألديك حلم النسيان...؟

- لن يتحقق يا عزيزي، يبقى سراب و زوبعة دخان.
- أَهنالك حلم عن بلدي والسلام...؟
- لقد صادروه من زمان، سأعطيك حلم دافئ لا قسوة فيه ولا آلام ...
- أخاف أن لا أصحو منه، فقد نال مني الحرمان!

حسناً...ما وضع حلمي أن أعيش كإنسان...؟

- أنه أغلى حلم بعته الى الآن.
- إذن.... أعطني أي حلم كان.
- هاكَ واحد قديم حين كان العرب أخوة وخلّان.

أخذت حلمي على مضض لأني كنت أعلم أنه لن يتحقق مهما اشتدت علينا الكروب والمآمرات، ثمّ ابتعدت عن الدكان...

وإذ صوت قوي دوى قريب المكان، لقد اغتالوا بائع الأحلام بسيارة ملغومة، كان قد ركنها أحد الطرفان!

يا إلهي ! من حينها لا أعرف كيف أغفو وأنام ...

رَكِبَ على موجةِ تَردداتي تصفيق حار آتي من جهة البنت المتمردة مع هتاف عالي يقول:

- واحد اثنين ثلاثة... شريف يا حياتي
- أخفضي صوتك فالوقت غير مناسب البتة لمثل تلك الهتافات! نحن في عزاء، ثمّ أنّ إجازتي منكنّ لم تنتهي !! لمَ اتيتِ ؟ وأين البقية ؟

ما إن ذكرتهنّ حتى وثبنّ أمامي دفعة واحدة في هذا الجو المشحون بالصمت والحزن والألم ...

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لمَ استيقظتُنّ الآن؟ فما يزال الجميع نِيام! نَمْنّ أنتنّ أيضاً، ودعوني مع تخاريفي بسلام.
- كفاك دلعاً... مَن تظن نفسك حتى تطول اجازتك كل تلك المدة، لست وزير أو رئيس حكومة لتتنعم باجازة متى يحلو لك!

قالتها إحداهن بثقةٍ تامّة ما عهدتها تصدر منها يومًا!

قد تفاجئك ردود الأفعال أكثر من الفعل ذاته.

وما إن هبط المساء حتى انفض مجلس العزاء، الشموع لم تعد تكفي لإضاءة الغرف، وبتنا لا نستطيع تمييز ملامح الوجوه المتواجدة، فأخذت الأصوات الحيز الأكبر في الوجود، مما جعل المتابعة في الجلوس من الأمور الصعبة.

ها قد ذهب كل الضيوف بعد الانتهاء من تقديم واجب العزاء، بارك الله في جهودهم سواء كان صديق أو قريب أو من سكان الحي، الجميع لم يتباطئ في ذلك وأنا بدوري اغتنمت الفرصة أثناء توديعهم وشكرهم للهروب من بنات أفكاري لآخذ قسطًا من الراحة، ثم انسحبت بمهارتي المعتادة متوجهًا نحو مسجد التوحيد لإقامة صلاة العشاء.

دخلت الجامع مع صديقي عابد لا شيئ يفسد ما أتينا لأجله، قمت على أداء صلاة الفرض جماعة، ثم بدأت بقراءة ما تيسر لي من القرآن الكريم والدعاء للفرج وفك الضيق عن المدينة وأهلها....

عاد بي الزمان بضعة شهور إلى الوراء لكني بقيت في ذات المكان، عندما دخلت بيسان شهرها الثامن من الحمل على خير، كنت مارًا بجانب جامع التوحيد فدلفت إلى داخله لأداء ركعتيّ شكر، حمدت الله حمدًا كثيرًا على قضاء شهرها السابع بسلام، كنت خائف من ولادتها باكرًا، حيث لا قدرة لي على تكاليف وضع الرضيع في حاضنة المشفى، بما أنها أصبحت تماشي تسعيرة فندق خمسة نجوم، بالإضافة إلى رحيل البرد وحلول الجو الدافىء حينها جعلني أتخلص من قلق كيفية التدفئة ومعاناة الغسيل بمياه باردة، نعم! فأحيانًا كانت مهمة غسيل الملابس تصب على عاتقي، والله المستعان.

كان وضع البلد ما يزال كما هو، بل بدأ يزداد سوء من جميع الجهات، موشّحات الرصاص المتواصل والقذائف العشوائية حطمّت الرقم القياسي الذي سجّله المطرب القدير صباح فخري في مجموعة غِينتس للأرقام القياسية بغنائه أطول فترة زمنية دون انقطاع، أما الكهرباء فقد أخذت عن جدارة وضع سيء للغاية صفة لها، كونها تأتي بالصدفة دون موعد مسبق وَبفترات قليلة لا تُذكر، بينما الماء لم تختلف كثيرًا عن حال زملائها، بل يمكنك القول أن طريقها للوصول إلى المدينة بات أبعد، لأنها آتية من القمر على حسب قول بعض المحللين المختصين.. كذلك الأنَترنت (واي فاي) لا يمكنك التحدث بالموضوع نهائيًا، فهو في خانة الهجران الى أجلٍ غير مسمى، مما جعلنا نضطر إلى استعمال بطاقة 3G للضرورات القصوى.

من كثرة ما مر على رأسي من مطبات، بدأت خارطة وجهي تتغير مع الإرهاق والتعب، أخذت تخط إحداثيات جديدة، بداية من الجبهة مرورًا بالعينَين إلى الفم ثمّ الذقن، لقد بدأ العمر يزحف على ملامحي الطفولية، لقد كبرت في فترة وجيزة عشرات السنوات.

زوجتي بيسان قالتها لي ذات يوم مخملي بكل بساطة! وكأنها لا تعرف أن الحالة النفسية غير مشجعة البتّة على الإهتمام بالمظهر الخارجي! وأن السعي وراء لقمة كريمة شريفة غير سهل أبداً، وأن هذا العمل

الشاق يشعر الشخص بأنه آلة صدئة تعمل على وتيرة تأمين الكرامة الوهمية!

بتّ أخشى أن يتحول قلبي إلى حجر فيكبس بعدها على أنفاسي ثم يحبسها وراء قضبان القفص الصدري! ويأتي عقلي بكل جرأة وشجاعة يخبرني عكس ذلك! وأنا لست أنا! أتحرك دون إرادة وأقول عكس ما أفعل، وأدور على ذات المنوال بلا توقف.

لقد استطاعت الحرب أن تغير من طباعي ومن مشاعري، أنا الذي كنت كتلة نشاط تعج بالحيوية والفكاهة، أضحك لأبسط الأمور وأبكي لأي مشهد مؤثر، أنا الذي كنت أهتم لأدق التفاصيل وأصغر المواقف التي أصادفها في طريقي، أما الآن للأسف ما عدّت مهتم !! جليد...

لم يعد أي شيء يثير انتباهي

لا صخب البلد من ثورات أو مؤامرات ومؤتمرات

ولا ردود الأفعال أو الإهمال

لم يعد أي شيء يثير انتباهي

لا ضوضاء المدينة من شموعٍ أو دموع

ولا سكون المعابر وازدحام المقابر

لا شيء يثير انتباهي!

ولا حتى ثرثرة النسوة في حديث خاص

ولا تبرج المراهقات الصغيرات وضحكاتهنّ

ومعاكسات الغرباء لهنّ، لا شيء!

ولا حتى الطفولة التي أراها في الشوارع بين الأزقة

معلقة على النواصي تبيع السجائر

لم يعد أي شيء يثير انتباهي...

ولا أنا في المرآة.

في عمق ذاك الشعور السلبي نظرت إلى مآذن جامع التوحيد الأربعة، والتي تأخذ كل واحدة منها زاوية من مبنى الجامع، كان لا بد من أن يطوف على ذاكرتي حادثة هدّ مئذنة جامع الأموي الكبير على بُكرة أبيها بقذيفة عشوائية، تلك المئذنة الشقيقة الموجودة داخل المسجد الأقصى في فلسطين المحتلة، ومع هول الحدث الذي صار إلا أنه كالعادة تبادل الطرفان فيها الإتهامات على هدّمها، ومن ثمّ هدؤوا!

يُعد الجامع الأموي الكبير تحفة فنية رائعة تتوسط مدينة حلب القديمة، حيث يعود تاريخه إلى زمن خلافة بني أمية، في داخله مقام النبي زكريا عليه السلام، ولقد أدرج على قائمة التراث العالمي، وكان من أهم الأماكن السياحية في المدينة، إذ يزوره القاصدون من كل أنحاء العالم، إنه لأمر مؤلم أن يصبح مهجور وحجارته متناثرة في أرجاء ساحة الجامع، لم أكن لأصدق كيف يمكن أن يتحول كل شيء إلى نقيضه!.

علمتني الحرب أشياء كثيرة ما كنت ساتعلمها لو عشت ألف عام! ذاك اليوم المليء بالمشاعر المتضاربة لن أنساه، فقد جعلني أعيش الحزن والألم مع الفرحة والبهجة في ساعة واحدة، فبالرغم من الثقل الذي كنت أشعر به جراء الكرب من تلقي خبر خراب المؤذنة طُرّتُ من الفرح! نعم، لقد طرت من الفرح يا صديقي عابد عندما أعلنت بيسان إسلامها في إجتماع عائلي، لقد نجحت في إيصال بما كانت تودّ أن تبثهُ لي عبر تلك البشرى، فهي أرادت أن تطفئ النار المتأججة في صدري لتنعش روحي بعدها كما ينتعش النبات بقطرات الندى.

لم أتفاجأ حينها من قرار زوجتي بيسان، فقد كانت تصرفاتها توحي لي وللآخرين أنها على مشارف الإسلام، لكنها إختارت الوقت العصيب لترسم شمس مشرقة على صفحات الحياة في يومٍ غاب عنه النور.

و أنا خلال فترة زواجنا لم أكن دكتاتوري قط، تركت الأمر يسير كما تسير الغيوم في السماء إلى أن تمطر الغيث أينما حطت، كذلك كنت مع بيسان فهي حرّة في عقيدتها وإيمانها طالما تقوم على الاتفاق الذي ربطته معها قبل الزواج، أنه في حال رزقنا الله تعالى أولاد ستحاول أن لا يتأثروا بطقوس دينها حتى لا يقعوا في التشويش العقائدي، هي تعرف أن الأولاد سيكونون على عقيدة أبيهم ودينه فلا حاجة للمشاكل في هذا الموضوع.

إلا أن بعض الأفكار السيئة التي كانت تنتابني أحياناً، والتي زادت في الفترة الأخيرة بعدما نزحوا أهل بيسان إلى عندنا، جعلتني أقلق نوعًا ما حيال ذاك الأمر، لكن استطعت أن أمارس خاصية القمع على تلك الهواجس بشكل قاسي فما تركتها تنمو وتكبر قيد شعرة!

لن تصدق يا عابد ماذا أهدت السيدة ليليان زوجتي بتلك المناسبة السعيدة، فقد دعت بيسان مع أهلها في الأسبوع التالي على الغذاء احتفالاً بإسلامها، وقامت على إهدائها في تلك المناسبة سجادة صلاة لونها أزرق فاتح مطرزة بنقوش بيضاء ذات الطراز الإسلامي، مع طقم صلاة أبيض مزين بشريط من الساتان السماوي، كانت قد قامت على صنعهم بنفسها!

أما أنا فأردت حينها أن أهديها الأمان الذي تحلم به كل ليلة، لكن ما باليد حيلة سوى زرع شتلات الصبر في حقول الروح، وسقيها بالإيمان علّها تزهر سلام يومًا ما.

لكل موقف نقطة توقف

من أين نأتي بالصبر؟!

وحدها العبادة بمقدورها أن تبث الصبر في النفوس، والتي تعد العلاج الوحيد لآلامنا المسرطنة في خلايا الأمل، ومن روعة الحياة أن تأتي لحظات سكينة بمقدورها مسح ما أفسدته الأحزان في يومنا، وهذه اللحظات لا تأتي إلا من التواصل مع الله تعالى.

بقيت في ساحة مسجد التوحيد أقوم على شحن روحي بالراحة النفسية والطمأنينة، فقد مر اليوم ثقيلًا على كاهلي ولم يعد لي قوة على حمل المزيد من المفاجآت...

كانت الساحة فارغة من الناس بالرغم من أنها تشع نورًا وضياء، للأسف لقد بدأ اليأس يزحف إلى أهالي المدينة بعدما عشنا شهر رمضان المبارك وعيد الفطر بقسوة وضنك لم نعيشه من قبل.
عندما وصل شهر الصيام كانت حلب غارقة في ظلمات الحصار وغلاء الأسعار، موائد الإفطار التي كنا نعدّها سابقاً بما لاذَ وطاب من محاشي وكبب، ومن مقبلات متنوعة مثل المحمرة والسمبوسك لم تكن هذه السنة ضمن قائمة المأكولات الحلبية لهذا الشهر الفضيل، كذلك الحلويات الرمضانية المشهورة في مدينة حلب والمخصصة لهذا الشهر مثل غزل البنات المحشوة بالقشطة البلدي والفستق الحلبي باتت في الأحلام فقط، مثلها مثل القطايف والكنافة والبقلاوة...

صنف واحد كان حاضر على مائدة الإفطار لا أكثر، مع كأس من الماء ونادرًا كا يكون بجانبها كأس عرق سوس، أما باقي المشروبات من تمر هندي وقمر الدين فقد رحلت دون وداع! لكن لن أنسى الأطباق الطائرة التي كانت تنتقل بيننا وبين عائلة أبو الجود، فقد بقيت طيلة الشهر الفضيل محافظة على وتيرتها بين الطابقين مهما كان المحتوى الذي تحمله.

لقد مرّ علينا الشهر المبارك ونحن نعيش في حالة لا يحسد عليها، كل شيئ مفقود وإن وجد كان أشبه بمعجزة، كانت وقتها أصابع الحصار متشابكة جداً حول المدينة بحيث النملة لا تستطيع النفاذ خلالها، وما حاجتنا لنملة ؟؟!! بالرغم من أن تواجد النمل في المنزل دليل الى رزقٍ قادم هكذا يُقال... ولكن كيف سَيأتي النمل !! وعلى ماذا يأتي ؟؟

لم يعد يوجد في المنزل أي صنف يؤكل يستدعي وجود النمل! فالمُؤن من أرز، عدس وبرغل انتهت... لقد أصبحنا نبتاع مستلزمات الطبخ كل يوم بيومه من أجل إعداد وجبة طعام، ونأكل وفق المواد والمعدات الموجودة عند محلات البقالة، لا مجال هنا للخيارات!

فإن وجد أرز أو برغل مع العدس كان الطعام مجدرة، أما وإن وجد البرغل لوحده كانت وجبة الإفطار برغل فرنجي لكن دون بندورة، وإن لم يتوفر شيء تكون المعكرونة الوجبة الرابحة في تلك الجولة.

حتى طريقة شربنا الشاي تغيرت، لقد بتنا نشربه بلا تحلية حفاظاً على نسبة السكر في الدم وعلى الصحة العامة! في البداية كنّا نشربه بامتعاض دون التمتع بمذاقه، لكن مرة بعد مرة اعتدنا على ذلك

وإكتشفنا أن مذاق الشاي أكثر لذة دون إضافات، لقد ظهرت نكهته الحقيقية التي كانت ضائعة مع ذرات السكر...

ولِمَ السكر أصلا! لماذا لا يضاف على الشاي قرفة أو كمون أو أي نوع من البهارات، لمَ هذا العنصر بالتحديد؟!

هناك عادات يعمل بها المرء دون أدنى تفكير! يمارسها باستمرار حتى تتحول إلى جزء من حياته اليومية... وعندما يتركها يكتشف الحياة كما لم تكن من قبل.

خلال المحنة التي نمر بها تمكّنا من تغيير بعض تلك العادات بل أعظمها لم يعد ضمن ما نفعله، إذ تم الإستغناء عنها بسهولة كما تمّ الإستغناء عن أشياء كثيرة لم تعد ضرورية في هذا الوقت، هي كانت تتحكم بنا مثل صورة مقيدة بإطار محبوسة داخله، وهذا الإطار يغطي جزء كبير من الصورة!

القوة هي إمكانية العيش في ظروف إستثنائية، والتأقلم بشكل سليم على أي وضع جديد، سواء كان هذا التغيير نحو الأفضل أو الأسوأ لا فرق.

أن تستطيع العيش بما تملك من إمكانيات وقدرات خير لك، من أن تموت وأنت حي!

في تأملاتي الغير مسبوقة استنتجت أن الحرب للفقراء فقط، فهم وحدهم يقاتلون من أجل الحصول على لقمة العيش، هم وحدهم الذين يناضلون بكل ما يملكون من صبر كي يستطيعوا الاستمرار في خوض المعارك التي لا تنتهي، الفقراء يدفعون بأحلامهم إلى أرض المعركة فإما تموت فيها أو تخرج منها مبتورة... بينما الغني يجلس في حصنه الحصين بألف خير طالما يملك المال لشراء ما يريد، يكتفي بمراقبة ما يحصل في الساحة دون الحاجة للنزول إليها، أو بمقدوره بكل بساطة أن يخرج من الحرب رافع الراية البيضاء ليتابع حياته في مكان آخر وعلى أرض بعيدة لا معارك فيها ولا قتال.

إلا في حالات نادرة لا يمكن نكرانها كما حصل في شهر رمضان الفائت، حيث أن الحرب استطاعت أن تجعل جميع الطبقات متقاربة من بعضها، الجميع كان يبدأ يومه وهو جائع، الجميع احتار ماذا يقتات على الإفطار، فلا قيمة للنقود هنا إن لم يتوفر ما تريد! الجميع صبر إلى حد الملل من الصبر، الجميع حاول الصمود أمام الجوع والحرمان من المأكولات الرمضانية، الجميع لديه حكايات تحمل ذات القصة لكن بأسماء مختلفة... وأينما كنا، شئنا أم أبينا كانت الحال واحدة والمصير واحد، شاركنا آلام المخاض لولادة تلو الولادة وجميعها لم يكن إلا حالات حَمل كاذب.... وماذا نملك؟! الواقع لا نملك سوى مواساة بعضنا

البعض في لحظات الحزن والخذلان، وتلك المواساة كانت كفيلة أن تضرب آمالنا بكل المقاييس عرض الحائط .

ما هذا الهراء أيتها البنت المتمردة ؟

عودي من حيث أتيتِ، فلا رغبة لي في الجدال...

لقد بات كل شيء من حولنا يضيق ويضيق، حتى المشاعر لم تعد مشاعر! السطحية سدّت الفراغات ولم يبقى للأخذ والرد معنى، هنا الزمن متوقف في هذه المحطة ينتظر قدوم معجزة ربانية.

حزنت بيسان لأنها لم تستطيع الصيام كل أيام الشهر لعدم قدرتها على ذلك، فقد إقترب موعد ولادتها وبان عليها الوهن والتعب، هذا أول رمضان لها وهي مسلمة بالرغم أنها كانت تصوم سابقاً معنا... لا بأس بهذا، لقد بدأت بالفعل في صيام الأيام التي أفطرتها بعد أن استعادت صحتها، مترتباً عليها دفع كفّارة نقدية بقيمة إفطار مسكين عن كل يوم أفطرت فيه أو إطعامه وجبة مشبعة... لذلك أخبرتُ عمي أبو عزّو -مشوه حرب حلب- بائع عرق السوس الذي يقف على ناصية شارعنا أن إفطاره عليّنا طيلة شهر رمضان المبارك، فكنتُ أعرج اليه يومياً قُبيل المغرب أقدم له وجبة الإفطار من التي كنا نقوم على تناولها....

أبي يونس وأمي تيريزا صاما أيضاً معنا هذه السنة بعد إلحاح شديد منهما فهما أرادا أن يتضامنان معنا في الظروف الصعبة التي شهدها أهل حلب في ذاك الشهر الفضيل وأنا تركتُهما على راحتهما، ففي الصوم صحة جسدية ونفسية لهما أيضاً إلا أني لاحظتُ عدة مرات مظاهر الإفطار على أمي تيريزا من خلال نشاطها في الحديث عن أي خبر أو نبأ، فهي عندما تصوم عن الطعام تصوم عن الكلام أيضاً لكني كنت أفتعلَ عدم الإنتباه ولم أعلّق على الأمر... مع ذلك احترمتُ بَادرتهما جداً وشيّدتُ بحسن أَخلاقهما وطيبة قلبيهما أمام أصدقائي وزملائي بالتدريس في الجامعة، فَالديانات السماوية جميعها تدعو الى المحبة والسلام، ومانحن عليه ليس إلا جماعات مرتزقة مختبئة وراء ستار الدين.

أما الأيام العشرة الأواخر من شهر رمضان الفائت فكانت لها روحانية خاصة، ظهرت في إعتكاف الكثير من الناس في المساجد كي يلتمسون ليلة القدر، تلك الليلة إن صحّت فيها الصلة وصحّ فيها الإقبال والدعاء خير من أن تعبد الله ثمانين عام عبادة جوفاء، ليلة القدر خير من ألف شهر، والحقيقة أنا كنت واحد من الذين آثروا الاعتكاف ولم يفعلوا.

هنيئًا لمن يتبع النية الحسنة بالفعل، فغالبًا تأتي النوايا لتظل نوايا أما الأفعال فنادرًا ما نقوم بها!

بالنسبة إلى عيد الفطر فقد مر بنا دون أي سابق تحضيرات، لم يكن مثل ما مضى من أعياد سابقة، بل كان مختلف كليًا عما كنا نعيشه من طقوس الاحتفالات وغيرها...

فيما سبق تقوم النسوة قبيل قدوم العيد بحملة تنظيف شاملة للمنزل كي نستقبله على نظافة وترتيب، تتضمن مسح الجدران وغسيل الستائر وترتيب الخزن بعد جرد المحتويات الموجودة، ثم تعملن على تجهيز معدات الضيافة حيث يهرعن إلى شراء الأطقم الزجاجية الناقصة من أطباق وكاسات وفناجين قهوة... كل شيء نظيف، مرتب وجديد.

أما هذا العيد لم يحصل أي من هذه الحملات لأن إحساسنا بأننا ضيوف غلب على أننا أصحاب المنزل، وهذا جعل أيدينا مقيدة لا نقوى سوى على الانتظار، لقد بتنا مستعدين بترك كل شيء من أجل النجاة بأرواحنا، فالمنزل لم يعد يملك الأمان الكافي لنشعر بالراحة والاستقرار داخله، لربما في أي لحظة يُهدّ فوق رؤوسنا.

ثمة أشياء تصبح ذات قيمة أكبر عندما نكون بحاجة لها.

كذلك الحال مع حلويات العيد التي كنا نحضرها في المنزل فيما مضى لم نستطيع تحضيرها هذا العيد، نظرًا لعدم توفر المواد اللازمة لتحضيرها من سمن وسميد وسكر، بالإضافة إلى الانقطاع المتواصل للكهرباء جعل مهمة الطهي بواسطة الفرن الكهربائي مستحيلة! مما حول الفرن إلى قطعة ديكور في المطبخ لا أكثر...

كانت رائحة الكعك في الأعوام السابقة تعج في الشوارع معلنة عن اقتراب قدوم العيد، بينما في هذا العيد غابت عن الحضور، حتى الأفران الموزعة في المنطقة لم تصنع كعك العيد لهذا العام، الكعك أصبح من الكماليات فهناك مواد غذائية أهم بكثير من الكعك وأولها الخبز! فأي شخص موجود في المدينة لو خيروه بين الكعك والخبز سيختار الخبز بالتأكيد...

أما عن ضيافة العيد فقد اقتصرت على تقديم القهوة فقط، فقطعة الشوكولا إن وُجدت تُعتبر مصيدةً للشبهات، والحلويات الشرقية التي يَشتهر بها العيد كَالكرابيج والمعمول والمبرومة بالفستق الحلبي وسوار الست وغيرها ... أصبحت في الويلات، لا جدال عليهم أنهم أضغاث أحلام وليسوا إلا أسطورة نحكيها ضمن حديث العيد!

ناهيكَ عن الفاكهة التي أوشكت على الإنقراض، حيث في بعض الأحيان الكيلو غرام لبعض الأنواع نافس سعر غرام الذهب! الفاكهة في العيد الماضي كانت كنز من كنوز علي بابا، ومجرد وجودها على مائدة الضيافة قد تثير التساؤل: من أين لك هذا؟!

لا مجال للمناقشة أو للمنافسة عندما يكون المطلوب مفقود.

لم نقم بتحضير أي نوع من حلويات العيد ولم نشتري الراحة بالفستق وقطع الشوكولا، حتى الأولاد لم ينالوا فرحة الحصول على لباس جديد أو لعبة كانت على قائمة الانتظار، لم يكن هناك أي زينة أو أضواء تنير الشوارع، القلوب محروقة بكل ما فيها من آهات، لم نجد أي بهجة لقدوم العيد فالناس انشغلوا بأشياء أهم، نعم هذه هي الحقيقة...

إن لم تستطيع التحكم بالأمور لا تدعها تتحكم بك، عندما تصل إلى تلك النقطة فاعلم أنك بطل من أبطال المواجهة.

كل ما هنالك حاولنا أن نملأ الوقت بعمل أشياء تساعدنا على قطعه قبل أن يقطعنا بالقهر والوجع، بيسان وأمها قامتا بتجهيز لوازم الولادة كون زوجتي كانت قد أنهت شهرها التاسع ولم يكن باقي سوى أيام لقدوم المولود، بينما أبي يونس قام بخياطة ثياب ملونة من بقايا الأقمشة لعرائس فرات الصغيرة، واحدة منهمّ كانت كبيرة جداً بطول المتر

تقريباً... لقد كان لديه ورشة خياطة في القامشلي لا بأس بها تعمل فيها ثمانية سيدات، ولكن بعد نزوحه إلى هنا وجد عمل متواضع في إحدى الورشات الصغيرة القريبة من المنزل والمختصة بخياطة أطقم الشراشف واللحّف وأغطية الطاولات، كم احترمت هذا الرجل لقد استطاع أن يتحوّل بكل فساحة صدر دون أي تذمر واستياء من صاحب ورشة الى مجرد أجير لا يملك سوى خبرته.

الحياة مدينة ملاهي كبيرة ولحظة الولادة هي تذكرة الدخول، وشئت أم أبيت عليك الخوض في جميع الألعاب مهما كانت! فطالما أنت تتنفس إما تلعب أو تموت.

لم يمر على المدينة عيد كهذا الذي مر عليها! أتى العيد وذهب دون أي هدنة لتوقف القذائف كما سمعنا من أخبار، ولا أي حَسم لإنهاء الحرب كما حلمنا... كان حزين ومؤلم وخاصة بالنسبة إلى الأطفال الذين فقدوا بهجة العيد وفرحته مع فقدان ما يتمنون، حاولنا قدر المستطاع أن نزرع البسمة على وجوه بعضنا البعض عسى أن تثمر رضى إلى العيد القادم.

كنت أنتظر قدوم أي جديد بفارغ الصبر كون الحدث بحد ذاته يحمل للأمل معنى التجديد في كل مرة يشيخ فيها، ليثبت بأن الحياة ستبقى

مستمرة حتى في أخطر مدينة في العالم، لكنّ يبدو أن كمية التفاؤل الكبيرة التي أحلم بها دائمًا مبالغ فيها! فما يلبث وأن يتلاشى كل شيء مع أدراج الرياح.

كان الوقت بعد منتصف الليل بساعتين أو أكثر حين شعرت بيسان بألم الولادة آنذاك، فقد لازمها مغص المَخاض في آخر أيام العيد حيث رأت علامات الولادة وعرفت أنها ستلد بعد ساعات، لقد أصرّتْ يومها أن تضع المولود في المنزل بمساعدة القابلة أم جورج التي تقطن في المبنى المقابل إلينا... قرارها هذا لم يأتي من عبث، فالمشافي الخاصة يلزمها فانوس علاء الدين السحري أما المشافي العامة تفتقر إلى الاهتمام و النظافة.

لم تعد غريبة حالات الولادة في المنزل ونحن في القرن الواحد والعشرين، حيثما عدنا إلى ممارسة كل الأعمال المنزلية على الطريقة القديمة ورتبنا كل الأشغال على أساس عدم وجود الكهرباء، بداية من غسيل الملابس اليدوي وَتسخين المياه من أجل الإستحمام، بالإضافة إلى الطبخ على الحطب أو على الفحم بحسب ما يكون متوفر والأهم من هذا كله بتنا نعدّ مراحل تحضير الخبز من عجن وخبز في المنزل أُسوةً بأمهاتنا وجدّاتنا وبِنِسوة عصر ما قبل الحركة التصحيحية! فوجدنا أنه

ليس غريب أبدًا أن تضع سيدة مولودها في المنزل كما كان الأمر من قبل طالما حالة الولادة لا تستدعي أي تدخل طبي.

كل شيء مرتّب نظيف، المياه الساخنة جاهزة وَالملاءات البيضاء معقمة وأهمها الجو العائلي الفريد من نوعه، فوالدتي وأمي تيريزا كانتا بجانبها يخففان عنها ألم المخاض بعبارات التشجيع وَتقومان بتلقينها آلية الدّفع عند مجيء المَغصة... بينما أبي يونس قام بالصلاة من أجل تيسير الولادة ووالدي قرأ سورة الرعد ودعى الله تعالى لها بقدوم الخير...

ابنتي فرات كانت تسترق النظر من شق الباب كي تواكب الحدث لحظة بلحظة وأنا واقف في الصالة أراقب.

- المراقبة تجعلك تعيش حياة الآخرين دون أن تشعر بشعورهم، هي ممتعة للحظات عندما لا تملك ما تفعله، ولكنها سيئة جيدًا إن أطلت بها وأصبحت العمل الوحيد الذي تقوم به.

أعرف ذلك يا صديقي عابد فلا داعي لأن تظهر أمامي الشخص المثالي في كل موقف! فكل واحد منّا لديه أحمال هو وحده يحملها فوق أنفاسه فلا ضير إن وقف قليلًا يلتقط ما وقع منه.

دعنا يا صديقي نخوض السباحة في بحر الذكريات، أتذكر يا عابد كيف فرحنا بقدوم ابني أكثر من فرحتنا بقدوم العيد! يا لها من عنصرية تحتفظ بها النفس البشرية!

الأمور الشخصية تأتي دائمًا في المقدمة وأي أمر آخر يكون ملحقًا بها، مع أني كل الأمور التي تحيط حولنا تنعكس علينا إما بالفرحة أو الحزن، وأن أفرح وحدي ليست بفرحة كبيرة مستمرة! هي فرحة مؤقتة لها توقيت محدد وتمضي، كذلك هو الحزن له ميقات من السهل جدًا التخلص منه... الأشخاص المتفائلة وحدها تعرف كيف تعيش.

ولادة ابني الصغير جعلتني أنسى كل الأشياء السيئة التي حصلت معي، شعرت بولادته أن الحزن لا محل له في الحياة، كي تعيش على هذا الكوكب عليك أن تكون سهلًا بسيطًا غير معقد، يكفينا عقد ومشاكل لا طعم لها...

لذا يومها تركت موضوع اختيار الإسم إلى بيسان بعد موافقة والدي طبعاً، فهنا العادة كما تعلم، تقول: أن أول مولود ذكر للعائلة عليه أن يحمل اسم جدّه دونه عن غير الأسماء، بينما والدي لم يُلزمنا على توريث اسمه فترك الإختيار لنا، وبدوري أنا الزوج المثالي أعطيت حرية القرار إلى بيسان تجنبًا لأي مشكلة قد تحصل! ومنه عادت هي إلى اسم نبيل على اسم والدي أدامه بالصحة والعافية.

لقد انتهى العيد مع بريق خاص بالرغم من غياب أشياء كثيرة، إذ استطاعت الفرحة أخيرًا أن ترتدي ثوب فضفاض سترت تحته الألم.

سبحان الله جبار الخواطر يُنير عتمة الأحزان بشمعة أمل ويروي المحتاج بسحابة صبر ويُكرم الضعيف بتقوى الإيمان.

الموقف التاسع

القرار سيد الموقف

داخل كلّ منّا مرآة داخلية وما يراه الآخرون ليس إلا إنعكاس حقيقة تلك المرآة.

اقترب مني خادم المسجد ليخبرني أن الوقت تأخر ولا بد من العودة إلى المنزل، قمت متجهًا نحو البوابة ثم تابعت المسير خارجًا بخطى متثاقلة حيث لا هدف أصل نحوه ولا عنوان أسير إليه، لم أكن أرغب بالعودة إلى المنزل، أردت الحصول على بعض الراحة والهدوء علني أستطيع المتابعة فيما لو عدت...

لكن إلى أين المفر؟ أخذت خطاي طريق المنزل بصورة غير إرادية بينما كنت شارد الذهن! يا ويحي من لحظات الشرود تلك، بدأت تنخر في هواجسي كنخر السوس في الخشب في الخشب لتُطقطِق فيها متى تشاء....

الى متى سنبقى مُهمَشين؟ تكملة لعدد المحافظات فقط ! أيُعقل أنّ تكون محافظة حلب اسم شُطِب من خارطة سورية ونحن آخر مَن يعلم؟!!

المدن الساحلية لا غبار عليها فهناك دائماً مَن يقوم بتنظيفها على أكمل وجه، والعاصمة دمشق تمارس نشاطاتها كعادتها من الإحتفالات بِدأً من الإحتفال بعيد المرأة إلى الِإحتفال بعيد الشجرة، وهنا في حلب اختفى أكبر مهرجان للقطن كان يقام في بداية الخريف من كل عام ولم يتعذب أحد المسؤولين بالسؤال عليه أو التعليق ولو بكلمة واحدة!

كذلك البرامج التلفزيونية كما هي! لم يتغير فيها شيء من برنامج صباح الخير وطني إلى البرامج العلمية بأنواعها... تزاوج الحيوانات، هجرة الأسماك وكيف انقرضت الديناصورات... فوائد البطيخ والغذاء المتوازن، وطرق تخزين المأكولات... مسابقات الجمال للأطفال وسوق الصرف والمال...

يا إلهي، لا شيئ عن حلب..!! حتى مذيعات نشرات الأخبار بكامل أناقتهن من التبرج المبالغ، لا حداد على الشهداء الأبرياء ولا هم يحزنون... في كل نشرة نترقب أن تلقى أية بقعة ضوء على ما يجري

هنا وما نعانيه كل يوم....حلب رئة الصناعة السورية وعقدة تجارتها، فيها أكبر تعداد سكاني عن باقي المحافظات... ألا يوجد شيئ عنها...؟ عادي... بل عادي جداً أن يكون الجواب عادي لسؤالك كيف الحال ..؟ دائماً و أبداً عادي... عادي!!

المطربة الحلبية ميادة بسيليس غنّت اغنية في أوائل تسعينيات القرن الماضي تحمل عنوان (عادي) كأنها لهذا الزمن!

الوقت يمضي ونحن ما زلنا نُحلل ونُحلل لنختصر النتيجة الى أبسط صورها ألا وهي الموت، الموت في حلب كائنٌ ما كنت هو القاسم المشترك الأصغر في كل معادلة مستعصية الحل، والهروب منه الى المجهول يُعتبر موت أيضاً لكن بشكلٍ آخر.

لقد عَلت موجة الهجرة الى الخارج في الآونة الأخيرة بشكل مرعب وبدأت الناس تركبها رغم الخطورة الكبيرة، خصوصاً الشباب الذين فقدوا عملهم أو الذين أنهوا الدراسة الجامعية، كذلك العائلات المنكوبة التي لم تعد تحتمل المزيد من الضغوط النفسية أَسرت الهجرة إلى أوروبا عن طريق تركيا.

هناك الكثير من أصدقائي رحلوا مُودّعين كلّ ما مضى على أنه كابوس طال حضوره، حملوا معهم حقائب مليئة بالذكريات مع تذاكر تتجه إلى حياة جديدة في بقعة آمنة من بقاع الأرض، معظمهم أدار ظهره وذهب

دون رجعة، والبعض منهم قال إنه غياب مؤقت فتركوا طريق العودة مفتوح...

قضية الانسلاخ عن الوطن ليست كباقي القضايا التي نتكلم عنها وندافع عليها، إنها قضية حساسة ومؤلمة جداً، مهما كانت مقومات النزوح مُغرية يبقى طعمها مرّ لاذع وَمفعولها مؤقت مثل المسكنات التي تعطى للأمراض التي تكون مستعصية العلاج...

لكن مهما قلنا يبقى لكل شخص أسباب تضعه داخل متاهة كبيرة لاتخاذ أي قرار، بإِستثناء الذي باع ضميره بِأبخص الأثمان واستغل الحرب في غاياته الدَنئية في مشاركة لقمة عيش المواطن المنكوب مادياً ونفسياً، نجده المستفيد الوحيد لتلك الفوضى، بل ويتمنى أن يطول الوضع على ما نحن فيه كي يستفيد أكثر وأكثر...

ولائم الألم التي تصيب المرء بالتخمة كفيلة بأن تجعله يتقيأ ما قام على تناوله سابقاً من مقبلات فرح شهيّة، فيصبح فارغ جائع يبحث عما يسد شغفه ويحقق أحلامه.

أما أنا أرى نفسي دائمًا ضمن دولاب أدور داخله ويدور بيّ، مما جعلني أفكر بالهجرة أكثر من مرة، لقد أُغلقت نوافذ الأمل في وجهي ولم أعد أستنشق سوى هواء السفر عن طريق باب الهجرة.

سمع عابد ما أفكر به ولم يصدقني، قائلًا:

- غريب يا شريف! أفكارك هذه جديدة عليّ! لقد تغيرت كثيرًا، من أنت يا صديقي؟!

أجبته لأول مرة بعدم مبالاة لرأيه، ودون انتظار أي كلمة منه:

لا تسألني من أنا ..؟

أنا نفسي نسيت من أكون

نسيت اسمي، نسيت تاريخ ميلادي

حتى أني نسيت حبي المجنون

أشعر بفقدان الذاكرة، أركض في الطرقات المهاجرة

أبحثُ في المحطات، في الموانئ وفي المطارات المعلّقة...

علّني ألقى روحي التائهة على أمواج البحر هائمة

بين طيات الغيوم السارحة مع رياح الشمال الجارحة

في كل مكان ...لم أجد ذاتي المصون!

قد تشارف اللعبة على الإنتهاء وروحي ما تزال في إختباء!

إذا عرفت من أكون، أخبرني قبل أن أصاب بالجنون.

بعد كل هذا الهراء وجدت نفسي أقف أمام المبنى المنكوب أراقب كعادتي! لا شيء يصف ما شاهدت من خراب، بدى المشهد كساحة معركة يفوح منها رائحة الهزيمة، أكوام الحجارة منتشرة في كل مكان،

لقد تدّمر جزء كبير من الواجهة الأمامية للمبنى بعدما هَوت عليه قذائف الإرهاب من البعد الخارجي.

استيقظنا جميعًا في صباح الأمس على رائحة السميد المُحمّص بالسمن، كانت بيسان تطبخ المأمونية بناءً على شهية فرات (المأمونية وجبة من السّميد المحمص بالسّمن ثم صبّه فوق ماء يغلي مع السكر وتزيّن بالقشدة البلدي والفستق الحلبي المجروش لكن في تلك الظروف تم الإستغناء عنهما وَبقى مرشوش عليها القرفة الناعمة، وَالمأمونية نوع من التحلية تُقدم في المناسبات السعيدة وسُميت بذلك نسبة الى الخليفة العباسي المأمون الذي كان يحب تناولها كل صباح ومدينة حلب مشهورة بها جداً وَنلفظها بالعامية مَامولية).

تناولنا الإفطار معًا ثمّ ذهبت بيسان إلى عند أهلي لتضع فرات عندهم، كي تتوجه بعدها مع أمي تيريزا والرضيع نبيل إلى الطبيب ليقوم بعملية ختانه، لقد أصبح عمره شهرًا كاملًا وكان لا بد من ذلك قبل أن تمضي به الشهور، بينما أنا توجهت إلى عملي بالجامعة وأبي يونس ذهب إلى عمله أيضًا، كانت الخطة بأن تبقى بيسان عند أهلي لبعد الظهر لتعود قريب العصر إلى المنزل مع أمي تيريزا والأولاد.

في حوالي الساعة الرابعة عصراً خرجت من الجامعة لأذهب بعدها إلى عملي الإضافي في المقهى، وَإذ بصوت قوي عالي التوتر كدوي الرعد

خرق حاجز الأمان حتى وصل إلى أعماق الخوف، نظرت اتجاه الصوت فرأيت سحابة سوداء قابعة فوق سماء منطقتنا مما جعل من نبض قلبي يتسارع قافزًا باتجاه الإنفجار...

لا أعلم كيف اختصرت الطريق الى ثلثه، وصلت الى مدخل الحيّ وأنا أركض نحو الإزدحام ... أتعثر بمشاهد مأساوية رسمتها بنات أفكاري على جدارية الاحتمالات السيئة، أصابني انهيار شديد اللهجة حين رأيت واجهة المبنى الذي نقطن فيه منهارة أيضاً وعروسة فرات الكبيرة تتدلى من غرفة نومها، متعلقة بستارة نافذتها تتأرجح وراء القضبان الحديدية التي برزت بعد تجردها من الحجارة...

أكوام من الدمار شدتني إلى مكان الخراب غير آبهٍ بأوامر فريق الإنقاذ عن الإبتعاد من الموقع، كل ما أريده الإطمئنان على عائلتي فخطوط الاتصال خذلتني كعادتها ولا أعلم مصير كل واحد منهم في هذه اللحظة!.. رميت بنفسي في أحضان الأنقاض، عانقت الغبار المنبعث من أنفاسها الأخيرة وأنا أفتش بينها عن أحلامي، عن آمالي وآلامي، وإذ بأنينٍ توغل بقوة في دهاليز مسامعي: ساعدوني... ساعدوني.

قفزت الى مصدر الاستغاثة، فرأيت جود عالق بين طوابق الدمار، صرخت بأعلى صوتي:

ها هنا ناجٍ... تعالوا وَأنقذوه

سارعوا... ارفعوا الحجارة... احملوه

استخرجنا جود بأعجوبة لم أرى مثيلها، كان وجهه دامي ولباسه ممزق تغطيه طبقة من الغبار الغادر، أول ما قاله كانت كلمات الخوف وهو يرتجف من المجهول:

- م ماما.... ب بابا اختي جو جوري جوري في البيت

- أنت أين كنت يا جود ؟

- أ أ أنا كِن نت في مدخل الدرج

يا ويلاه....لم أكن أدري ماذا أفعل وكيف أتصرف!

استدرت إلى صوت ينادي: شريف... شريف أأنت هنا؟

إنها بيسان! لقد كانوا عند أهلي لحظة القصف والحمد لله، لكنها أتت تبحث عن والدها فهي لم تكف عن المحاولة بالإتصال معه وهاتفه لا يرن!! بل كان يفصل على الفور دالًا بأنه خارج الخدمة....

وبعد ساعتين من إنهيار المبنى وإنقاذ ما تمّ إنقاذه من العائلات التي كانت تقطن فيه... ظهر من تحت الركام كتلة من اللحم المهروس متجمعة على بعضها البعض، إنهما أبو الجود وزوجته السيدة ليليان أذرعهم متشابكة وبينهما جوري يرحمهم الله... منظرهم شرح على أنهم كانوا مجتمعين في الصالة في لحظة وداع عرفوا النهاية منها.

دخل جود في نوبة صراخ هيستيري بعدما فقد السيطرة على تصرفاته، كان يلطم نفسه بقوة وهو يبكي... احمرت عينيه من شدة الغضب، رفع رأسه الى السماء يسأل ربه: يا الله لماذا القتل؟ يا رب خذني معهم.... خذني يا رب

احتضنته بذراعيّ بعد حقنه بحقنة مُهدأة في الوريد من قبل احد فريق الإسعاف وحملته بمساعدة جارنا صاحب محال الألبسة الى منزل أهلي حتى يعتنوا به ثمّ عدت الى مكان الدمار...كانت بيسان مثل المجنونة تفتش بين الركام وتصرخ: أبي أبي أين أنت؟

حلّ الظلام على المنطقة وأبي يونس لم نجد له أثر أو نسمع عنه خبر، حينها أعلن فريق الدفاع المدني أنه سيأتي في الغد ليتابع البحث عن باقي الضحايا المفقودة... ليلة الأمس كانت من أطول الليالي التي عشتها، لقد جفانا النوم ولم يغمض لنا جفن بإنتظار قدوم ضوء النهار. وعندما خطت السماء أول ضوء لتعلن بداية اليوم أشرعت بيسان بإرضاع نبيل رضعة مشبعة، بينما أنا ذهبت الى ورشة الخياطة التي يعمل بها أبي يونس وهناك أخبروني أنه خرج منها بالأمس الساعة الثالثة من بعد الظهر تقريباً، هذا يعني أنه كان في المنزل حين قُصِف! لأن الطريق لا يستغرق أكثر من نصف ساعة سيراً على الأقدام.

رجعت الى موقع الحادث، كانت بيسان قد سبقتني اليه منذ برهة تنتظر قدوم فريق الإنقاذ، لم يكن الصبر حليفنا آنذاك، فقررنا التوغل بمفردنا وسط تلال الدمار، و بعد ساعة من البحث والتفتيش نادتني بيسان:

شريف... تعال بسرعة يوجد شخص هناك في الزاوية!

اقتربنا أكثر نتحسس الرجل المرمي هناك، لقد كانت ملامحه غير واضحة فالدماء أكلت وجهه والحجارة المتكسرة غطته، لم يظهر منه سوى كفه الأيسر المهشم....

يا إلهي ! إنه أَبي يونس، عرفناه من إصبع يده المقطوع، ففي بداية مشواره في الخياطة فقد عقدة من سبابة يده اليسرى عندما كان يقوم على قص طبقات القماش بالمقص الكهربائي، لقد هرب من بطش داعش ليلقى حتفه هنا...

الموت لا يعرف له مكان طالما حان الموعد، ونحن علينا أن نكون مستعدين لاستقباله في أي مكان وأي لحظة، نحن حمقى عندما نترقب ولادة السلام من أرض تُضاجع الإرهاب كل يوم.

انتهت مراسم الدفن قرابة الظهيرة، ومع أشعة الشمس العمودية تختفي الظلال ولا وجود لأي احتمال سوى ما نعيشه في الحقيقة.

امتلأ منزل أهلي بالجيران والأصدقاء، لقد أتوا حاملين واجب العزاء معهم لي و لعائلتي... أبي يونس استشهد بالأمس من حصيلة سقوط

قذيفة هاون على المبنى الذي كنّا نقطن فيه، زوجتي انهارت من حدّة الفاجعة وأمي تيريزا غرقت في واحة الصمت.

وقفت جانباً أمام الركام أتأمل ما بقي من نفسي وهي تودع قوافل السلام الأخيرة، تتسائل للمرة الألف! عن قيمة الآلام التي نشعر بها والأحزان الثقيلة التي نحملها مقابل الصمود!

أشباح المكان تتجول من زاوية إلى أخرى تحمل ملامح أشخاص غريبة عن هنا! يقلبون الأنقاض عسى أن يجدوا شيئًا تحتها، كل واحد منهم يحمل بيده مصباح صغير كي يضيئ البقعة التي يحتلها، يبدو أنهم لصوص على الأغلب! ينتقلون بين الأحياء يبحثون عن الخراب عسى أن ينالوا بعض الغنائم التي تركها الدمار ورائه.

أتى صوت من إحدى الزوايا شق عمق الظلام بنبرته الحادة:

- كل المنطقة تم مسحها، لا تتوقع أن تجد شيئًا ثمينًا، ليس لك نصيب هذه الليلة، ارحل يا رجل...

صوت يقول بحزم في داخلي:

- ألم تسمع يا رجل؟! قال لك ارحل...

سأرحل يوما ما يا صديقي عابد، لكن علي أولًا معرفة على أي شاطئ سأرسو؟! ألم تشعر بي يا صديقي؟! أنا في صراع مع العقل والقلب؟! ألم أقل لك أني مشغول في قرار مهم!

ليكن في بالك يا صديقي أن معظم القرارات التي نتخذها لا تكون من منطلق أي حرية كانت، وإنما بناءً على الظروف التي تحيط حولنا، فهي الحاكم الظالم الذي يدّعي البراءة دائماً لتُلزِمنا على اختيار المختار لما نحن فيه، والباقي ليس سوى وهم اخترعناه وقمنا على تصديقه، كمن كذب الكذبة وصدقها!

ومنذ زمن أعيش في حرب بين قلبي وعقلي، فمن الصعب جدًا معرفة من سيفوز عندما يكون طرفا الصراع ذات القوة وذات نقاط الضعف.

ما بك يا صديقي؟ صمتك هذا يضعني دائمًا في حالة هذيان...

قل أي شيء...أني أسمعك

- نقاط الضعف هي ذاتها منبع القوة، حين تُجيد كيفية استخدامها.

الموقف العاشر

القوة تكمن في الإيمان

وصلت إلى مدخل الشارع الذي يؤدي إلى منزل أهلي، كانت المباني ما تزال تقاوم الغرق في بحر الظلام الدامس، والأشجار على قارعة الطريق بدت مثل طواحين الحقول المهجورة، تطحن من بين جذوعها رجال يتطاير نحوي كل واحد منها على حدى، وهم ينادون باسمي بأعلى الصوت: شريف... شريف تعال بسرعة...

أصابني الجمود بضعة لحظات، لم أعي أين أنا وماذا حصل؟ لكن كنت متأكد أن أمر سيئ قد حصل! كارثة، مصيبة؟ لا أعلم!

هل هو أبي؟ هل غلبه الحزن يا ترى فأصيب بنوبة قلبية! هل هي أمي التي تعبت من استقبال الآلام؟ فاستسلمت للضعف! أم بيسان؟ لقد تركتها

منهارة في حالة سيئة، فهي التي وجدت أبي إلياس تحت الركام، ولم أتفوه معها بكلمة أو أجبر بخاطرها منذ ذلك الحين... لا أعرف! ربما أمي تيريزا وقعت في غيبوبة من شدة الصدمة! أفكار وأفكار تحلّق وتدور فوق رأسي البائس وكلها تنقر ما بقي من حبات الأمل البيضاء التي كانت مخزنة إلى مثل هذا اليوم الأسود.

اقتربت من مجموعة الرجال مسافة كافية سمحت لي برؤية ملامح وجوههم، لقد عرفتهم على الفور إنهم شباب المنطقة الذين يقطنون معنا في الحيّ، وأنا أتفقد الوجوه واحد تلو الآخر علّ واحد منهم يقول لي ما سبب كل هذا الضجيج الذي شقّ سكون الليل! أتى على مسامعي ما قاله أحدهم وهو يلهث: شريف، ابنك نبيل... لقد اختفى!

لم أصدق بادئ الأمر، فكيف يحصل ذلك والبيت مزدحم بالناس! ومن الذي أخفاه؟ ولماذا؟ أيعقل أن يضع من تلقاء نفسه طاقية الإخفاء ويختفي هكذا عندما رأى ما رأى من الحياة التي نعيشها هنا؟!

- ما بك يا رجل؟ هل جننت؟! ما بك! إنه يقول لك أن الرضيع اختفى، وهذا لا يعني سوى أمر واحد هو أن الولد مخطوف، وأنت لست بهنا! اصحى يا رجل...

هزّني صديقي عابد بكلامه هذا، نعم... الولد مخطوف ليس هناك تفسير آخر، نظرت حولي فلم أجد أحدا! لقد اختفى الجميع فجأة حتى دون أن

يقولوا عبارة مواساة أو كلمة وداع! الخبر السيئ هنا يأتي مباشرة بلا مقدمات، ويبقى ثقيلًا لا يرحل بسهولة كما أتى.

أصوات الصراخ والنحيب سحبتني إلى منزل أهلي من وسط الظلام المطبق دون الحاجة إلى ضوء المحمول، كنتُ مسلوب الإرادة، مسلوب التفكير، مسلوب الأمان ومسلوب الثقة... مسلوب كل الأشياء التي ظننت يومًا أني لم أفقدها! لم يكن بحوزتي أي شيء استند عليه! حتى صديقي عابد لم أجده بجانبي في هذه المحنة.

كانت بيسان تصرخ بلا هوادة مثل المجانين، مسكت بمعطفي وهي في قمة الغضب ترمي بكلمات لم يكن مفهوم نصف ما قالته!

- أين كنت هذا اليوم يا شريف؟ هل انتهيت من نزهتك؟ في هذا اليوم العصيب ماذا فعلت غير أن تكون تمثال! ماذا أفادني وجودك عندما احتجت لك؟ لقد فقدت ابني وأنت لم تكن الرجل الذي يحمي عائلته، انزل عن برجك العاجي يا رجل وعيش الواقع الذي نحن غارقين فيه حد الأعماق، كف عن التجرد من المسؤولية وأعيد لي ابني.....

صبت غضبها كله عليّ بينما أنا لم أنطق ببنت شفة، ماذا كنت حينها سأقول؟ ولا كلمة تستطيع إخماد النيران التي كانت مشتعلة في صدرها،

لقد نسيت فاجعة موت والدها عندما كانت حياة ابننا نبيل في خطر وضمن دائرة المجهول.

يبقى الموت ضعيف أمام الحياة، الموت مقابل الحياة ليست موازنة عادلة، تبقى الحياة غالية طالما هناك روح عالقة في الجسد.

توجهت إلى والدتي علّني استنتج كيف اختفى الرضيع ومتى؟

أمي لم تكن في حال أفضل من زوجتي جراء الصدمة التي تلقتها من إختفاء نبيل، استطعت بعدها أن أسحب الكلام من شقيقتي شام التي أخبرتني أنه كانت هناك سيدة متواجدة بين الحضور في مجلس عزاء السيدات عرضت نفسها للقيام بإرضاع نبيل، رافقتها إلى الغرفة الصغيرة التي بجانب باب الدار، وسلمتها الصغير بيديها كي تقوم على إرضاعه، ثم جلست معها تنتظر انتهاء الرضعة، وإذ بأصوات المشاجرة علت في مجلس عزاء الرجال، خرجت بضعة دقائق كي تستطلع الأمر ثم عادت إلى الغرفة الصغيرة...

أخبرتها السيدة أن نبيل أخذ رضعة مشبعة ثم غرق في النوم من شدة تعبه، كان هناك جسد صغير ممدد على الأريكة ومغطى بذات بطانية نبيل، حاولت شام الاقتراب منه للتأكد على أنه بخير، لكن السيدة وقفت أمامها قائلة: اتركيه ينام بعض الوقت إنه مرهق من الجوع، لقد بكى كثيرًا اليوم...

تابعت شقيقتي سرد القصة حيث قالت أنهما خرجتا معًا من الغرفة وتركا نبيل نائم داخلها، ثم ودعتها قائلة أنها ستعود المساء إذا احتاج نبيل رضعة أخرى وأن رقم هاتفها مقيد عند بيسان ثم غابت عن الأنظار...

بعد ساعة تقريبًا عادت شام إلى الغرفة كي تتفقد نبيل فوجدت مكانه دمية بحجم رضيع راقدة مكانه! حينها عرفوا باختفائه وأن السيدة قامت بخطفه ووضعت مكانه دمية حتى لا يشعروا بالجريمة ويتثنى لها الابتعاد عن المنطقة بأكبر قدر ممكن.

توجهت إلى بيسان أسألها عن السيدة المجهولة بينما شام كانت تشرح صفات السيدة إلى بيسان، وبيسان كان جوابها النفي دائمًا، لا تعرف المرأة الغريبة وليس لديها أي رقم هاتف كما ادعت!

جلست أربط الأحداث مع بعضها فوصلت إلى تفسير واحد لا تشوبه أي شائبة، المشادة الكلامية التي حصلت بين الرجلين في مجلس عزاء الرجال قامت على تشتيت انتباه شام فتركت السيدة وحيدة في الغرفة، وهذا ساعد السيدة بالحصول على فرصة لوضع دمية بدلًا من نبيل، ليبدو إلى شام عندما تعود إلى الغرفة أنه نائم... لكن من الذي أخذ الطفل؟ وأين اختفى؟

أجابتني إحداهن -بنات أفكاري- بكل ما تحمله من ثقة:

- لا بد من وجود شخص آخر متفق مع السيدة المجهولة ليأخذ منها نبيل ويعطيها بدلًا منه دمية...

نعم، هكذا يبدو يا عزيزتي، بل ربما الرجلان أيضًا اللذان فعلا الغوغاء كانا على اتفاق مع السيدة كي تتم العملية بنجاح، إنهم عصابة قاموا بالتخطيط ونفذوا وهم يعرفون أن الكل مشغول بالعزاء والازدحام، ما عدا الفوضى العارمة التي كانت متواجدة في المنزل مما سهل تنفيذ عملية الخطف.

بيسان لم تتوقف عن النحيب واللطم وإلقاء اللوم على كل من يقف أمامها واتهامه بالإهمال بسبب ما حصل! حتى أنها اتهمت فرات بذلك! فرات الطفلة الصغيرة التي لا تدرك ما يدور حولها!

بينما أنا كنت ألومها في نفسي عما حصل حينها، فالطفل يبقى من مسؤولية الأم أكثر من الجميع، لكن الوقت لم يكن مناسب البتة في بوح ما بداخلي من لوم وعتاب.

عندما يصاب المرء بالفشل في أمر ما، أول ما يقوم به هو توجيه إصبع الاتهام على الآخرين والظروف المحيطة حوله في سبب حصول هذا الفشل، وهذا كله كي يخرج نفسه من الموضوع كما تخرج الشعرة من العجين.

الإعتراف بالفشل يتطلب قوة كبيرة، والقوة الأكبر عندما نقوم بذلك ونحن في حالة ضعف.

ثلاثة أيام مضت ولا شيئ جديد في قصة ابني نبيل، نبيل الرضيع لم يصلنا عنه أي خبر، لقد أخبرنا الجهات الأمنية المختصة وهم بدورهم أتوا إلى موقع الحادثة وسئلوا كل واحد منا على حدى، واستخلصوا النتيجة نفسها التي وصلت أنا إليها، السيدة المجهولة اختفت من حين الحادثة، كذلك الرجلين الذين قاما بافتعال الفوضى آنذاك لم نجدهما، بالرغم من عمليات البحث الكثيفة التي قمنا بها...

بالإضافة إلى كل ما سبق لم يتصل أحد لطلب الفدية أو أي شيء آخر! ربما تم تهريب الطفل إلى أوروبا عن طريق تركيا أو لبنان، هناك حوادث خطف كثيرة مشابهة وكلها قيدت ضد مجهول! وبيسان لا تنفك أن تسأل: أين نبيل؟ ألم تأتي به بعد؟!

لكن ما شغل تفكيري بشكل دائم هو السؤال الذي طرحه علينا ضابط الأمن حين أتى لأخذ الإفادة: هل لديكم أعداء؟ هل هناك شخص محدد تريد اتهامه بعملية خطف الصغير؟

بيسان والجميع أجابوا بالنفي، حتى أنا أجبت حينها بالنفي قائلًا: لا، ليس لدينا أعداء ولا أتهم أحد، بالرغم من أن جميعهنّ -بنات أفكاري-

اتجهنّ إلى متهم واحد في قضية الخطف، بينما صديقي عابد كان لهم

بالمرصاد ولم يترك لي فرصة كي أتكلم مع الضابط عما يجول في خاطري من أفكار.

خوف ما بعده خوف، أن تكون خائف من قول حقيقة ما يختلج في صدرك من أحاسيس ومشاعر، بل إنه لأمر مرعب أن تخفي معلومة مهمة مقابل المحافظة على علاقة مهمة!

لم أكن أريد أن أفتح باب من الصعب جدًا إغلاقه طالما خلف هذا الباب عواصف وأعاصير.

في بعض المواقف تكون التضحية ثمينة، ولا أحد يعرف قيمتها سوى الذي يقوم على تقديم القربان.

لا أعرف ما الذي فعلته! لكني كنت متأكد أن خسارتي ستكون أكبر إن قلت ما يجب أن يُقال، فما دامت المسألة مجرد أوهام لا أستطيع أن أتكلم بها...

لم يكن هناك دليل قاطع يُدين عم بيسان في القضية، فهو الشخص الوحيد الذي أظهر عداوته بصورة واضحة عندما تزوجنا، حيث قام بالتهديد آنذاك بشكل علني بأنه سينتقم يومًا ما من ابنة أخيه، وقد وجد الوقت المناسب لتنفيذ التهديد حين علم بفاجعة موت أبي يونس!

في صباح اليوم الرابع اتصلت بي الجهة الأمنية وأخبرتني أن هناك طفلًا وُجد على باب كاتدرائية مار الياس الكائنة في ساحة فرحات،

قالوا أن الطفل المتواجد يحمل شبه كبير وصفات مشتركة مع طفلنا المفقود، أفكار قوية عصفت في رأسي المتآكل، خربت كل ما تبقى من قواعد وأسس ثم تركته كرة مسطحة ومضت! ماذا لو لم يكن هو؟ نسينا كل الأحداث السابقة التي حصلت معنا منطلقين نحو مقر رعاية الأسرة لنتعرف على الطفل، فهناك وُضع الطفل المخطوف لحين التعرف عليه من قبل ذويه، وصلت إلى المركز برفقة بيسان لكن كل واحد منا بشخص آخر كأننا غرباء عن بعضنا البعض، كان الطريق صامت أخرس لم يُقال فيه أي كلمة، ولم نؤدي أي حركة من حركات الجسد المعتادة التي تحصل بين الخصوم، فكم تمنيت حينها أن ترمقني بنظرة ثاقبة تفتح بيننا طريقًا للحديث، لكن لم يكن هناك أي ثغرة تمكنني من العبور خلالها، حتى لغة الإشارة فقدناها! في موقف واحد فقدنا كل شيء يمكنه أن يكون جسر يوصلنا مع بعض، كنا تماثيل متحركة أو مجرد ألعاب خارجة عن السيطرة ...

قد تأتي حادثة في الحياة بمقدورها أن تكشف أحاسيس ومشاعر غريبة لم تكن موجودة من قبل! لتصبح بعدها أسلوب في قاموس التواصل العائلي... وقد يؤدي تراكم الأحداث إلى طريق غامض خالي من أي توقعات، هناك دائمًا أسباب لوصولنا إلى ما نحن عليه.

بعد شهرين من الزمن قمت على توصيل جود إلى الجمعية الأرمنية لحماية الأطفال دون سن الرشد الذين فقدوا أهلهم في الحرب، فهو بحاجة لرعاية خاصة وإعادة تأهيله نفسياً حتى يستطيع متابعة الحياة بمفرده، لكن الحقيقة أردت إبعاده عن ابنتي...

فرات تعلقت به كثيرًا وخفت من تطور تلك العلاقة فيما بعد إلى أبعد من الصداقة، إلى الحب...

الأحداث التي ألمت بنا جعلت فرات قريبة جدًا من جود، أقرب من أمها وجدتها حتى أقرب مني أنا والدها! هو كان الوحيد بجانبها وهي الوحيدة بجانبه، حادثة وفاة جدها بطريقة مأساوية، حزنها على صديقها جود وتعاطفها معه، وفقدان صديقتها جوري جعلها تتقرّب من جود كثيرًا، والمفزع من هذا كله حادثة خطف أخيها نبيل ثم رجوعه إلى حضن أمه بعد أيام عصيبة، كانت أسوأ ما مرّ بها من خوف وهلع من احتمال فقدان الأشخاص الذين نحبهم.

موقف واحد في الحياة بإمكانه أن يكشف لك ما لا يمكنك معرفته في حياتك كلها، لكن المفاجأة يا صديقي عابد أنك تتخطاه كباقي المواقف!

إلا أن مع كل موقف تمر به يرحل منك شيء ليحل بدلًا عنه شيئًا آخر، شيء يقوم على احتلالك واِستغلالك إلى أن تَتغير موقف بعد موقف

حتى تصل إلى النهاية وأنت لا تعرف نفسك! كالموت البطيئ يسري في الأوصال ليسرق عمرك يوم وراء يوم.

حزين أنا يا صديقي، حزين جدًا ولا أحد يعرف ما سبب حزني، بل لا أحد يعرف أني حزين، أو ربما لا يرون ذلك لأني لم أسمح لغيرك الاقتراب مني كما اقتربت أنت يا صديقي، لا أحد يعرف آلامي وخسائري كما تعلمها أنت، لم أغضب أمام أحد ولم أبكي على العلن كما أفعل معك، لذلك يروني شخص لا يحزن...

الحقيقة يا صديقي أنك وحدك تستطيع إخراجي من ذاك الحزن، ولكنك بعيد لم أعد أراك كما قبل، ولم أعد أسمع صوتك! الواقع أني لم أعد أسمع صوتي، لقد اختفى صوتي يا صديقي...

لقد رحلت ورحل صوتي معك، وتلك الحالة تغرقني حزنًا، أنا أموت شوقًا لك، أخشى أن أكون ضائع، تائه ومنهك من انتظار رجوعك...

اشتقت إليك يا عزيزي، اشتقت إلى نفسي فلا تطل الغياب.

صوت بكائك لا يفارق مسامع قلبي عندما غبت عنك ذات مرة ومن ثم عدت إليك، طلبت مني يومها أن لا أرحل عنك، بل قلت لي: أرجوك لا تغيب مرة أخرى، اعتبرني كما يحلو لك... أتريدني صديق؟ أنا لها، أتريدني أب أنا لك أفضل أب؟ أتريدني أخ؟ أنا الأخ الوفي... أنا لك كما

ترغب؟ ولن أسألك لِمَ ولن أعترض، المهم أن نكون معًا... وها أنت ابتعدت! ابتعدت دون كلمة وداع!

أنا اليوم بحاجة ماسة لك يا صديقي أكثر من السابق، أني أختنق من الوحدة، نعم أنا وحيد بالرغم من ازدحام كل شيء حولي، غيابك يا صديقي يخنقني بشدة، آه لو أملك زمام الزمن لعدت بك كما كنا، ولكن هيهات بين الماضي والحاضر.

مع تفاقم الأحداث أصبح الحصول على ليرة نظيفة صعب جدًا، فكيف لي أن أحصل على مبلغ نظيف يمكّننا من العيش بأقل ما يمكن! المقهى الذي كنت أعمل فيه مساءً هبطت عليه قذيفة بالخطأ كالعادة، وهي عبارة عن أنبوبة غاز كانت تستهدف الحاجز الأمني الذي بجانبها... أما صاحب المقهى لم يعد لديه رغبة لتصليحها وفتحها من جديد، فقام على إغلاقها وتركها للذكريات ثم هاجر إلى مكان ما في بقاع الأرض.

بقي الراتب الوظيفي يناضل وحيدًا في الساحة، فأنا لستُ بارع بالعمل الإنفرادي كوني غير مطابق لمواصفات الجماعات المطلوبة من كذب، خداع، نصب ونهب.

بينما بيسان لم تعد تعطي دروس خصوصية، لا لإنها لم ترغب بذلك بل لأننا بتّنا نمكث اثنا عشرة شخص في منزل أهلي المؤلف من غرفتين وصالة، وأَوضاع المدينة التي تزداد سوء زادت الطين بلة فلم

يعد هنالك طلاب لوجوب ما يفرض وجوده بشكل إلزامي وهو تأمين أبسط ضروريات الحياة متغلباً بذلك على العلم الذي بات للمُترفين فقط من أبناء الأثرياء.

كل ذلك جعلنا نشعر أننا أغراب وسط الأحداث الغريبة التي حصلت معنا، ولا يوجد أصعب من أن نعيش الغربة ونحن في حضن الوطن.

بناء على ضوءِ ما سبق وللمرة الأولى اتحّدن فيها بنات أفكاري مع بعضهّن البعض مقررات ما يلي: الهجرة الى ألمانيا، أنا مع زوجتي وفرات والرضيع نبيل ذو الثلاثة أشهر وبرفقتنا أمي تيريزا أيضًا.

ألمانيا الدولة الأوروبية التي فتحت باب الهجرة حاليًا عن طريق إحدى طرق الموت المتوافرة.

أما والدايّ فقد آثروا البقاء في حلب، كون شقيقتي شام مقيمة عندهم مع ثلاث أطفال بعد استشهاد زوجها في حادثة قصف الجامعة، حين كان يعمل سائق سيارة أجرة آنذاك وصَدَف مروره في تلك الساعة من القدر.

كان علينا تأمين مصاريف السفر قبل نهاية فصل الصيف لأن ركوب الأمواج يكون أشد خطورة برحيله، وفرص النجاة تتقلص الى ما لا نعلم... فما كان إلا أن تبيع أمي تيريزا ما تملكه من مصاغ ذهب،

بالإضافة إلى قيمة منزلهما الذي قاما ببيعه في القامشلي قبل أن يأتيان إلى حلب، بينما احتفظت بيسان بأسوارها للأمور الطارئة.

قمت على تقديم الاستقالة من عملي في رئاسة الجامعة، وهذا ما فعلته بيسان أيضًا فقد قدمت استقالتها في مديرية التربية، كانت فكرة العودة غير واردة أبدًا في عقولنا، هي رحلة باتجاه واحد ذهاب دون عودة.

غادرنا حلب دون وداع، لطالما كرهتُ لحظات الرحيل التي تطعن القلوب بخناجر الصمت، حيثما الأرواح تغرق في بحر من الأسئلة دون أن ترسوا لجوابٍ واحد! تسبح وهي تحاول النجاة لتقف على شواطئ القرار كالفرجار، قدم مغروسة في أرض الوطن وقدم أخرى تدور دون أن تعرف لها مسار محدد سوى ما تحلم به من سلام، تَرسم حلقات حولنا لنواجه بها إعصار اللجوء الى بلاد غريبة عنا في كل شيء! طامعين بالأمان عسى أن يمسح قَساوة الألم الذي رسمته الحرب في أجندة الحياة، ومستقبل أكثر طمأنينة وراحة.

لم يكن سهلاً أبداً سلخ الروح عن الجسد، فقد بقي منها أجزاء كثيرة عالقة في الجذور وما حصلنا عليه ليس إلا فُتات!

هذه أول مرة نغادر بها مدينة حلب وكأننا أُناس غريبة تراقب فقط نظرات بعضها البعض بخفاء مثل جاسوس مزدوج مهمته نقل

المعلومات بين الحّس والإدراك لَتقوم بالمقارنة بين ما نشعر وما يحصل في تلك الرحلة، غير آبهين بما يجول في خاطر أحدنا الآخر! وعدم رغبتنا بسماع أي كلمة جعلنا نعيش فيلم وثائقي صامت من العقود الغابرة.

لم نكن بمفردنا.... لقد كنّا موكب من المهاجرين في صحراء اللجوء الغامض، اتجهنا نحو الشمال إلى تركيا، على طريق فرعية تتوسدها مطبات داعشية أو أي جبهة فارت وغارت هنا في تلك المنطقة.

هنا... أرض الجهاد....!!

سألت نفسي ألف سؤال وسؤال: ما الأمر الذي يحسم وجوب اقتلاع المرء من الجذور؟ ليقوم بِقذفه بكل قوة إلى الأعاصير! كي يرقص ألم في ساحات الدمار! يقطف القنابل ورودًا، ويزرع المدافع أشجار! هل هكذا هي الأمور؟ تبدو بسيطة في بادئ المواجهة ثمّ تنكشف الخدعة! حيث لا يدرك الواحد منا حجم السوء الذي يقع فيه إلا بعد أن يغرق يغرق في دوامة الخسائر...

مما لا شك فيه أن الربح في أي معركة له حصة من الغنائم، لكن الحقيقة غير ذلك البتة! فنحن مع كل مكسب نظن أننا ربحنا، بينما هو العكس تمامًا! نحن نفقد في مقابلها شيء لن نلاحظ خسارته إلى أن نرتاح من عناء المعركة التي خضناها سابقًا.... ثمّ ما نلبث أن ندخل

في معركةٍ أخرى، وكلنا حماس كي ننتقم أولًا وكي نقوم بالتعويض عن ما فقدناه ثانيًا،غير آبهين بما ستكون نتيجة العبث والمجازفة تلك!

ثمّ تتوالى المعارك ومعها تتوالى الخسائر حتى نصل إلى يوم نخسر فيه كل شيء!

هدير عادم الباص الذي نحن نركبه يقضم سكون الليل بأسنان مُحركه المهترئ، يقف بنا عند كل حاجز لا يعلم به سوى السائق! إلى أن وصلنا نقطة معينة قريبة من الحدود بين البلدين، يتم الولوج بشكل غير نظامي، أي بطريقة غير قانونية بالإتفاق مع الجهات المهرّبة بالعملة الصعبة على كل رأس، فنحن لا نملك جوازات سفر أصلاً لنسافر بها! فقد أخبرونا أصدقاء سبقونا درب الهجرة انهم تمكنوا الوصول الى ألمانيا وبحوزتهم البطاقة الشخصية فقط أو دفتر العائلة، ونظراً لصعوبة إستخراج جوازات السفر في حلب وَلتكلفتها الباهظة قررنا المغادرة دون أي وثيقة سفر...

كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً بعد منتصف الليل، في بقعة وعرة تفصل بين البلدين مع جرعات من الهدوء الإلزامي يتخلله همس مُرشد الطريق... كنّا أكثر من عشرين شخص بيننا ستة أطفال، نَتراقص على إِيقاع نبض قلوبنا بما يعزفه من رعب وخوف...

بيسان تحمل ابننا نبيل لترضعه متى احتاج، فالحمد لله والشكر لقد عاد الحليب إلى ثدييها حين لاقت ابننا نبيل بعد أيام على إختفائه، وأمي تيريزا تهتم بفرات وهي المسؤولة عنها، بينما أنا كنت أحمل حقيبة كبيرة على ظهري وفي كل يد حقيبة سفر قياس وسط محشوة بالأشياء الضرورية فقط.

مشينا حوالي النصف ساعة حتى وصلنا إلى نفق محفور يمر تحت الأسلاك الشائكة الممدودة على حدود البلدين، وقفنا رتل واحد... الرجال في المقدمة والمؤخرة أما النساء والأطفال كانوا في المنتصف، ثم نزلنا الواحد تلو الآخر إلى ممر ضيق عرضه بعرض شخص متوسط الحجم، كانت الوجوه صفراء والتعابير متكررة، كل واحد منا يملك ذات العلامات، حتى الرعشة التي كانت تنتقل من أَول المجموعة إلى آَخر المجموعة هي ذاتها لكن بشدات مختلفة، كنا نسير في سيالة بشرية تعمل على وتيرةٍ حصرية لا مجال للتغيير، مما جعل الحجارة من تحت خطانا تصيح لتخبرنا بأنّ هذا لا شيئ! وأن القوي سَيأكل الضعيف...

بعد قرابة عشرون دقيقة من المسير في النفق الضيق، خرجنا بشكل فجائي إلى خندق قام بدوره بالترحيب بنا أفضل ترحيب، هَوَينا في بطنه بلا هَوادة مما جعلنا متراكمين على بعضنا البعض، قمنا وتسلقناه ثمّ

انطلقنا مع صوت منخفض لأطيافٍ ملثّمة تشير بالأيدي بِأن نسرع الخطى Hadi koş koş هيا اركض اركض....

نحن في الأراضي التركية !!

الموقف الحادي عشر

الصمت نصف الحقيقة

لا تعطي كل العطاء ولا تحب كل الحب، لا تنسى كل النسيان ولا تبالغ بالذاكرة... اتركْ شيئاً لنفسك.

لم أكن أدري أن الصداقة التي بيني وبين عابد مهمة جدًا إلا عندما وجدت نفسي وحيدًا في بلد غريبة وعلى أرض لم تطأها قدماي من قبل، كل شيء حصل بسرعة رهيبة، وكأنني في حلم نقلني من مكان إلى مكان آخر وأنا مسلوب الإرادة، بحثت عن عابد كي أسأله عما حدث فلم أجده! يبدو أن كلانا تغير لأحد الأسباب التي كنا نراها تافهة وغير مهمة! فبعض الأحداث تحدد مواقف من الصعب تجاهلها.

لن أنسى وجه القمر في تلك الليلة التي غادرنا فيها حضن الوطن، كان يملأ صدر السماء بضيائه ونوره، نظرت إليه بثبات مع ابتسامة عساه يتعرف عليّ بسهولة! فما كان منه إلا وأن أشاح بوجهه خلف سحابة حمراء، وكأنه يخبرني أنه غاضب مني ولا يريد مقابلتي!

وصلنا مع طليعة الفجر إلى أقرب قرية حدودية، كنا في حالة سيئة بعد رحلة أكلت ليلة كاملة بينما كانت قبل الحرب تشبع من ساعتين مع الاستراحة.

أخذنا جناح متواضع في فندق كي نرتاح من عناء ما قطعناه ريثما يحين موعد الرحلة التالية، كان لا بد من فاصل بين الأشواط قبل المتابعة نحو طريق الهجرة، فابنتي فرات أنهكتها الإثارة بالرغم من الفرحة التي عاشتها مع لحظات الإثارة كالأفلام السينمائية المصورة، الحقيقة أن جميعنا كان متعب فأردنا أن نسترجع قوانا، حيث أمامنا ريح عاتية وأَشرعتنا تمزقت من هَول ما لقيناه...

كل شيء متوفر هنا الماء والكهرباء، الطعام بمختلف أنواعه والأهم من هذا كله الأمان الذي أضعناه منذ سنوات ـسنوات الضياعـ ولم نعد نشم رائحته! طريقة تصرفنا دلّت على أننا قادمون من كوكب بعيد عن أبسط حقوق الإنسان، والدهشة اقتاتت ما بقي منّا فنحن نسينا تلك الرفاهية المطلقة .

خلال أسبوع استطعنا أن نحصل على أقساط من الراحة لا بأس بها، اتجهنا بعدها الى مدينة أزمير التي تقع غرب تركيا على البحر المتوسط، حيث ملتقى المهربين مع المسافرين ونقطة تحوّلهم الى لاجئين... وصلنا إلى المدينة ليلاً ثم توجهنا مباشرة الى الساحة المركزية، ومنها قادنا السؤال الى مقاهي تقع على الساحل يتواجد فيها المهرّبين، وهنالك تفاجئنا بالكَم الهائل من المهاجرين، والمدهش أنه لا حاجة لمترجم فالجميع يتكلم العربية!

أخبرونا أنه علينا الإنتظار بضعة أيام فأمامنا رتل من مختلف الجنسيات مثلنا تماماً أغرتهُ الهجرة، أغلبهم يحملون أوراق ثبوتية مزوّرة تُفصح أنه سوري الجنسية!

السوري في الوقت الحالي يملك الدرجة الأولى لقبوله في بلاد اللجوء الأوروبية، نظرًا للوضع الأمني الذي يتعرض له البلد...

وريثما يحين اليوم الموعود للإبحار كنت أتابع الأحداث على مواقع التواصل، أراقب ما يحصل من قصص غرق وفواجع أليمة تصيب المهاجرين في بطن البحر، كذلك كنتُ ألاحق أخبار مدينتي حلب التي ما تزال تنهش من صمود صبر أهلها...

أخدش مكان الجرح بأظافري كلما دنا التحامه لأفَتحه من جديد فلا ينزف سوى ألم وعذاب! لستُ مازوشياً كما تعتقدون، لكني أحاول أن

أبرّر سبب هجرتنا بالحالة السيئة التي عشناها وأُبرئ ما بقي منّا بالقرار الذي اتخذناه، وعلى كل الأحوال هناك دائمًا تناقضات قوية تمتزج بصراع داخلي لا يمكن تخمين الفائز منها.

وصلت تلك الليلة التي ينتظرها الجميع، ولا بد من التحضير لها إذ قمت بشراء أربعة سترات نجاة كي يرتدي كلّ واحد منّا واحدة، بينما نبيل بقي تحت حماية والدته، كان الجو أمام متاجر بيع أدوات الغطس والسباحة مشحون بالرعب والخوف من المجهول، فلا أحد هناك مما يشتري السترة يعرف كيف ستكون الرحلة، وهل سينجو منها؟ ومن سيموت؟

كنا مجموعة كبيرة مختلطة من كافة الأعمار ومن جنسيات مختلفة، من أفغانستان والعراق ومصر واليمن... أما الحصة الأكبر للحضور فكانت لأصحاب الجنسية السورية.

كان الوقت بعد منتصف الليل حيث الظلام غطاء وساتر لما يحصل ورائه، قطعنا بصحبة أربعة شباب ملثمة مسافة طويلة حوالي ثلاثة ساعات خلال الجبال والمنحدرات سيرًا على الأقدام حتى وصلنا إلى سفح حوله الصخور ممتدة من كل جانب إلا طرف واحد يتصل مع شاطئ رملي صغير، أضواء الهواتف النقالة دلتنا إلى نهاية المطاف، كان الزورق المطاطي في البحر بانتظارنا وهو يعلو ويهبط حسب شدة

الأمواج التي تتخبط به، مظهره وهو يتراقص داخل الماء أخبرنا أنه جاهز للإبحار في رحلة الموت، إلا أن شكله دلّ على مدى ضعفه وقوة تحمله المنخفضة...

جلس الشباب الملثمة على طرف السفح، أشار أحدهم بيده باتجاه الشاطئ، ثم تابع قائلًا بصوت منخفض:

- عند وصولكم الشاطئ ستجدون البالم بانتظاركم، اركبوا البالم بهدوء، فأي فوضى تسبب خطرًا على الجميع.

وكي نستطيع الوصول إلى البالم كان علينا النزول إلى البحر حتى تغمرنا المياه الى منطقة الجذع، من ثم نصعد عليه الواحد تلو الآخر بشكل متوازن حتى لا ينقلب رأسًا على عقب ويضيع الوقت، فهناك جماعات أخرى تنتظر رحلتها وفق موعد محدد لكل مجموعة.

كان السؤال الوحيد الذي يطرح نفسه في رأسي هو كيف لهذا الشيء الخفيف أن يملك القدرة على نقل مجموعة كبيرة من الأشخاص يتخطى عددها الثلاثين أو الأربعين شخص إلى عرض البحر؟!

البالم لم يكن سوى زورق مطاطي صغير في مؤخرته مُحرّك آلي رديء، يتبرّع بقيادته أحد الأشخاص مقابل تخفيض مالي من قيمة الرحلة، وهذا البالم عليه أن يحط بنا على شواطئ الأراضي اليونانية

بأقل خسائر من الأرواح! وقراصنة الموت غير مسؤولة عن أي فشل يغتال العملية من غرق أو مداهمة خفر السواحل...

وعلى من يصل اليونان المتابعة بالمضي إما سيراً على الأقدام في الغابات بين الدول الأوروبية أو التنقل خلسة بواسطة القطارات الى الأراضي الألمانية، وأصحاب الحظ السيئ هم الذين يقعون بين أيدي الشرطة الحدودية فتمنعهم من مغادرة البلد ومتابعة الرحلة، لتقوم بعدها على ترحيلهم إلى مخيمات اللجوء.

توقف أفراد المجموعة على الشاطئ يتناقلون النظرات فيما بينهم، تقرأ في عيونهم قصص وحكايات تَروي ما عاشوه دون أن ينطق أي واحد منهم بكلمة!

ثمّ أخذ الواحد تلو الآخر بدخول البحر ليحصل على مكانه داخل الزورق، بينما أنا رحت متأملًا إياه أحاول معرفة ماذا سيحلّ بنا إن نحن ركبنا هذا الشيء المتراقص!...

لا حياة ورائنا والخطر أمامنا ولا خيار لدينا سوى النزوح

كان لا بد من قرار الهجرة واللجوء نحو المجهول

بعدما فقدنا كل إمكانية احتمالات البقاء

أولها الأمان وآخرها أن نعيش كإنسان...

ودّعنا الماضي وحملنا معنا الذكريات فقط

ثم بدأنا الزحف عبر ذاك القارب المثقل

لقد أراد قراصنة الموت أن ندخل في مراهنة خاسرة مع القدر

حيث الأجواء في بطن البحر كانت مرعبة

وعصا الشمس تلعب بِرووسنا كَطابات البلياردو

بينما راحت الأمواج تُراقص أجسادنا

على إيقاع نبض قلوبنا الضعيفة...

فرات الطفلة الصغيرة لم تقدر على تلك المبارزة

لقد أُصيبت بنوبة ذعر جعلتها تختلج بقوة على صدري

ثم راحت تختنق وكأن هواء الكون كله محبوس على كوكب آخر!

لملمت أحاسيسي المشوشة في وداع ابنتي الأخير

شعرت معها أن تلك لحظاتي الأخيرة

لقد كان موتها متوقع ولكن ما بعد الموت لم يكن في الحسبان!

سادت الفوضى على الموقف

صريخ بيسان ونحيب أمي تيريزا جعل أحدهم يستشيط غضبًا

لفرض قوانين اللعبة...

ممنوع تواجد الجثة على القَارب ولا دور لِلجوكر هنا

ويترتب عليّ أن أرمي بطفلتي إلى البحر!

نظرت ابنتي فرات نحوي وفي عينيها كمية كبيرة من الهلع! دقيقة واحدة كافية للسماح إلى نفسي لأقوم على تخيل ما سيحدث...

مؤكد أنها لن تسامحني بتلك البساطة؟! وأنا الذي خاطرت بها، جازفت وغامرت ما بين الحياة والموت!!

صرخ أحدهم في وجهي قائلًا:

- هيا اصعد، لقد بقيت أنت وعائلتك، ماذا تنتظر يا رجل؟ الجميع صعد على الزورق وأنت واقف بلا حراك.

في داخلي فوضى! وكل واحدة من بنات أفكاري تخاطبني على حدى قائلة:

- دقت لحظة الحسم، لا وقت للتأمل!
- بماذا تفكر يا شريف، التردد ليس بمصلحتك.
- أنت اخترت هذا الطريق يا شريف! ما بك الآن؟!

كان قلبي ينبض بشدة ونظراتي مصبوبة على هاك الزورق ذو الفم المفتوح الذي سيقوم على ابتلاعنا، من ثم قذفنا في البحر، كنت أشعر بالبرّد ونحن في شهر آب (أغسطس)، بدأت الرعشة تحتل أطرافي وأنفاسي كادت تخنقني، دنى مني المهرّب ومدّ يده قائلاً:

- أعطني باقي المبلغ واصعد بسرعة مع عائلتك، لقد تأخرتم!

أقطر نقاط تردد مثل رجل ثلج بدأ بالذوبان بالرغم من أني كنت متجمد من الخوف!... فأيضاً قصة الطفل إيلان الذي أودعته الأمواج غريقاً على ذات الشاطئ الذي كنا نقف عليه، دَقت في أوصالي آنذاك مسامير منعتني من إتخاذ خطوة واحدة نحو البحر، ماس كهربائي سَرى في دمائي جعلني أنتفض، جذبني إلى الأعماق حيث وصلني إحساس بأن مصيبة ما ستحصل عما قريب...

نظرتُ الى بيسان بعينين ترتعدان هلعًا وفزع، كانت هي أيضًا مثلي تتوسل عدم المتابعة بل زادتها دموعاً تتسول فيها الرجوع، ممسكةً ساعدي بشدّة وهي تخبرني:

- تمهّل... توقف هنا، لن نتابع.... أرجوك

نعم، استطعت أن أتمرد هذه المرة على بنات أفكاري، قررنا العودة أدراجنا، لن نتابع... لن أبحر ومعي عائلتي، لن أستسلم إلى براثن الموت!... لم نتابع.

عندما تكون هواجسك في حوجلة تخلط فيك ما تخلط، تمّد وتجذر في عواصف متتابعة من حولك! حتماً ستكون النتيجة خارج التوقعات، وحسب ما تمليه عليك الحاسة السادسة.

خلعت سترة النجاة ثم رميتها على الأرض وكلي ثقة بما قررت، الجميع كان يراقب ما سيحدث فقد عرفوا أني تراجعت عن القيام بالرحلة...

تقدّم نحوي أحد الشباب المسؤولة عن عملية التهريب ليهمس في أذني بخشونة:

- لا يمكنك التراجع يا عزيزي، هذه ليست لعبة تنسحب منها متى شعرت بالملل، هنا إما ترحل إلى البحر أو تموت بأرضك، وليكن في علمك لم يعود أحد إلى البر حيًّا، المكان سري للغاية وليس من مصلحتنا أبدًا أن تبقى على قيد الحياة!

رفع قميصه كي يريني سلاحه الصغير المحشور داخل خصر بنطاله، ثم تابع قائلًا بوجهٍ غاضب:

- البس سترتك وارحل بهدوء، لا نريد المزيد من الفوضى والتأخير، لقد شارف الفجر على البزوغ...

للمرة الأولى كنت عنيدًا في قراري ولم أخاف من عواقبه، بقيت صامت بالرغم من التهديد الذي تعرضت له من جهة، ومن جهة أخرى هتاف الناس التي كانت تنتظر على الزورق وهي تطالب بالإنطلاق نحو عرض البحر، كان الجدال بعيد وموضوع الشرح غير مطروح في رأسي... كل ما أريده أن أبتعد مع عائلتي عن هذا المكان وأرحل عن تلك المنطقة بأكملها.

سحب الرجل مسدسه وصوبه نحو رأسي معلنًا عن بداية النهاية، ابنتي فرات كانت ترتجف مختبئة وراء دموعها ساحبة بساقي إلى الخلف،

خوفها وصل إلى شراييني وهي تبكي بحرقة لاذعة، بينما بيسان صرخت بكلمات لم أفهم معظمها! ربما هي كلمات سريانية لم أعرف معناها في ذلك الوقت...

ومن الجانب الآخر أصوات المهاجرين تتسابق لتصل إلى الهدف الذي أتوا لأجله، لم أعد أركز ماذا أفعل وكيف أتصرف؟! أغلقت عيناي بكل ما أحمله من إيمان أنتظر معجزة ربانية تخرجنا من هذه الورطة، لا أدري ما هي بالضبط لكني كنت واثق أننا لن نموت بتلك الطريقة وعلى هذه الأرض.

مرت ثواني والمشهد متوقف عند هذا الموقف، وإذ سمعت صوت قهقهة دوت في الفضاء ملأت الفراغ الذي كنت أدور داخله، سيطر الفرح على الأرجاء فجاة بعدما كان الضغط مشتعل لدرجة الغليان، فتحت عيناي لجهة البحر فرأيت الزورق المطاطي يبتعد على طريق الأفق، لم يبقى طويلًا حتى اختفى عن ناظري، لقد رحلوا دون أن يلقوا أي كلمة وداع، لقد رحلوا بلا عودة...!

عادت الكلمات السريانية إلى مسامعي حيث دار الحديث بين بيسان والرجل الذي يحمل السلاح، دقائق معدودة غيرت الموقف 180 درجة، أرجع الرجل سلاحه إلى مكانه ثم وجّه الكلام نحوي بوجهٍ تجاهلت تعابيره، قائلًا:

- خذ عائلتك وارحل من هنا بسرعة.

نظرت إلى بيسان علّها تقول شيئًا كي تفسر لي ما دار في الحديث بينها وبين الرجل، لكنها لم تقل أي كلمة! كل ما فعلته أدارت ظهرها للبحر وعادت أدراجها حاملة الرضيع على صدرها، ثم لحقت بها أمي تيريزا، وابنتي فرات أخذت تشد بيدي نحن العودة واللحاق بهما... مؤكد أن بيسان تعرف الرجل المهرب وهو يعرفها من ماضي بعيد مشترك وإلا لما دعانا نترك المنطقة بسلام.

في طريق العودة حاولت أن أجد إجابات للأسئلة التي تضرب في عقلي فما وجدت جواب يشفي طريقة تفكير الرجل الشرقي! شعرت بيسان أني مشغول في البحث عن تفسير لما حصل فأرادت مساعدتي حين علقت على الموضوع بجملة واحدة حيث قالت:

- هناك مواقف الأفضل لك أن تتخطاها دون توقف.

صفحات وصفحات يا صديقي عابد قمت على قلبها لأبدأ بصفحة بيضاء نظيفة، صفحات أخرى قمت على تمزيقها ونثر القصاصات عبر الأثير، صفحات وصفحات لم أجد فيها ذاتي! كنت دائمًا عابر كلمات لا أكثر... وهناك صفحات قام الفراغ على احتلالها ليس عبث يا صديقي، وإنما لم يكن هناك ما يَقال، أو بالأحرى الحقيقة في أغلب الأحيان لا نستطيع الاعتراف بها.

هناك مواقف نتمنى ألا نتعرض لها ولكن للأسف لا بد من الوقوف عندها ولو للحظات كي نتعلم بأن الحياة لست كما نحلم بها! ومواقف كثيرة قمت على تخطيها دون الالتفاف إلى الخلف، فلما لا أتخطى هذا الموقف بالذات؟!

أقسى المشاعر هي التي تضعك في بركان الصمت وفي داخلك حمم من عبارات العتاب.

أين أنت يا عابد أني أختنق من ازدحام الكلام الذي في داخلي، أريدك أن تحمل عني بعض الاعترافات حيث لم يعد لها مكان هنا في صدري، عد أرجوك فالوحدة قاتلة ولقد أعلنت الهزيمة.

كان لدي القدرة على المشي لآلاف الكيلومترات دون أن أشعر بالتعب، مثل محرك يملك طاقة كبيرة فوق الوصف، يعمل ويدور بلا توقف أو راحة! اكتشفت حينها أن الإنسان لا يعرف مدى قوته إلا عندما يتجرد منها، أي القوة تكمن في قدرتك على ضبط الأحداث لصالحك عندما تفقد السيطرة عليها، هي فلسفة صعبة الفهم لكنها حقيقة راسخة في أعماق المنطق لم تطفو على الأذهان بعد!

طلب فرات المتواصل كي تتوقف وترتاح جعلني أنسحب من رحلتي الصاروخية التي بدأتها من الشاطئ، رحت أبحث عن أقرب مأوى كي نحط رحالنا فيه، فوجدت مبنى صغير متواضع مؤلف من ثلاثة طوابق

يضم عشرة غرف على الأكثر، واجهته مطلية بألوان زاهية، أما الشرفات فكانت من الطراز الفرنس الأنيق مزينة بالورود والنباتات الخضراء، يقف وحيدًا بين الأبنية العالية التي تحيط حوله، أمامه حديقة صغيرة تحوي أشجار برتقال ومقاعد خشبية بسيطة وأرجوحة، والأهم من كل ذلك لم يكن يطل على البحر، لم أعد أهوى هواء البحر وأنفاسه المزعجة في الوقت الراهن، لا أريد تعذيب نفسي عذاب إضافي...

كانت الساعة التاسعة تقريبًا عندما دخلنا صالة الإستقبال، العائلة منهكة للغاية إنهم بحال يرثى لها، تركتهم يرتاحوا في الغرفة من بعد الشقاء الذي لاقوه بالأمس، بينما تابعت السير نحو طرقات المدينة المشتعلة بالمهاجرين، مشيت بلا توقف علّني ألقى صديقي عابد بين الجموع في الساحات أو ماشيًا بين الحارات أو أجده في الحدائق جالس ينتظر رجوعي! كنت أخشى النظر إلى البحر كلما صادفته أمامي في نهاية كل شارع، لم يعد لدي ذخائر كي أخوض المزيد من المعارك، كنت عاري من أشياء كثيرة! عاري من الذكريات عاري من الأحلام، عاري من الأفكار وعاري من الحب...

مضى اليوم بكامله وأنا أمشي وحيدًا بلا أي شيء يثبت أني شريف!

بدأت أشعر حينها أن اسمي هرب مني بطريقة جعلني أبدو أحمق، ما معنى أن أكون شريف في زمن فيه القرار لحامل السلاح والكلمة

لصاحب المال؟! ماذا يعني أن أكون شريف ولا أعلم ما يدور حولي، وماذا أكون لو لم أكن شريف؟! كل المواقف التي مررت بها لا تشبه هذا الموقف، هذه أول مرة أقف عاري من نفسي!

الحياة لا تقف عند موقف

لست ضائعاً....! طريق العودة لم أنساها

تلك البيوت... مررت بها، لكني لم أعرفها

لقد انطفأت المصابيح وتوقفت الأراجيح

هي أيضاً لم تعد تعرفني

لقد سكنتها الأَشباح ولعبت فيها الرياح

الأبواب تشبه الأبواب والحديقة لم تعد حديقة

لمَ كل هذا الدمار؟ هل مرَّ من هنا إعصار!!

أين رحلوا؟ وهل نَجوا....!

بترددٍ شديد تقدّمت خطوات، كنت أسير بحذرٍ على الأنقاض

دقاتُ قلبي تُقرع كالطبول، أنفاسي تُلاحق بعضها فوق المعقول

ناديت..... ناديت

صدى صوتي يهمس من بقايا الغرف

صورهم، ضحكاتهم من حولي تلف

عندها.... وصلت إلى نقطة اللارجوع

خلفي ماضٍ موجوع وأمامي آهات ودموع

أين أنا..؟ ولمَ هنا!

لم أعد أعرف كيف الخلاص

لقد تعطلت عندي جميع الحواس

الله أكبر الله أكبر .....

أشهد أن لا اله الا الله .....

لقد كان أذان الفجر، أخيرًا استيقظت من أسوأ كابوس زارني خلال حياتي الماضية، أعوذ بالله مما رأيت! اللهم احمِ حلب وفرّج عن أهلها، أستغفرك اللهم وأتوب اليك.....حسبنا الله ونِعمَ الوكيل.

شعور مؤلم أن تعود متأخر ويكون الوقت الذي ادخرته للمستقبل فات، أو تكتشف أن كل ما فعلته في الماضي وهم وسراب...

أسئلة كثيرة تتكرر في كل موقف تتعرض له، أين أنا؟ ولمَ هنا بالتحديد؟ ماذا لو كنت هناك؟! بدا لي من كل ذاك الغموض أن الاختلاف الوحيد في جميع المواقف هو المكان، بينما باقي الأشياء متشابهة، والقرارات التي نتخذها هي التي تحدد موقعنا في الحياة.

بعض الأمور عليك تقبلّها كما هي، كالفراشة مثلاً من المستحيل أن تعود يرقة فالأفضل لها أن تحترق.

تناولت هاتفي النقال فور الانتهاء من أداء صلاة الفجر، كنت قلقًا جدًا وأبحث عن أي خبر يأخذ معه هذا القلق، لقد تركت أهلي ومدينتي في وضع متأرجح بين الحياة والموت، إلا أن الأمر الذي اكتشفته في رحلة تصفحي للأخبار اليومية، أن عدم وجود خبر من طرفهم يعني أنهم بخير ولا شيء سيء حصل لهم! الأخبار السيئة تنتشر بسرعة البرق، بينما الأخبار الجيدة تأتي على ظهر السلحفاة.

خبر واحد احتلّ معظم صفحات منصات التواصل الاجتماعي، كان يتحدث عن الجثث العالقة بين الصخور وَالمترامية منها على الشاطئ، وكيفية غرقهم أثناء رحلتهم الأخيرة في الليلة الماضية، وقفت أتأمل الخبر بصمت مصحوب بالهلع عمّا يمكن أن نكون نحن أيضًا معهم لو تابعنا رحلة الموت تلك! لترتاح أرواحهم في كبد السماء، فقد آن لهم أن يناموا بهدوء...

أعراض الخطر كانت واضحة وكفيلة في بتر قفزات كان مصيرها الوقوع بسهولة، لقد كان البحر غاضباً ليلتها، وهو يزمّجر بأمواجه العالية مُعلناً عن شهيته لوجبةٍ دسمة...

لستُ نادم ولا آسف أبداً على قرار الرجوع إلى الخلف، حتى المال الذي صرفناه في تلك المحاولة لم أتركه يأخذ حَيزاً من تفكيري، ليس بالضرورة أن نقامر بما نملك وبما لا نملك، فالروح كانت تتراقص على كفّ عفريت أعماه الحماس وهو يسير على حبل من الشوك!

التضحية في بعض الأحيان جريمة، والمغامرة انتحار...

ونحن في اللحظة الأخيرة قررنا الوقوف وتغيير الاتجاه نحو السلام، حملنا ما كنّا آتينَ به من شغفٍ ورغبة لمستقبلٍ مشرّق عائدين بهما إلى مدينة تكون قريبة من مدينة حلب، رجعنا الى ولاية غازي عنتاب فهي الأكثر استيعاباً للسوريين من مختلف طبقات المجتمع السوري، من أصحاب المعامل أو المشاريع كالمطاعم والمخابز إلى العمّال والموظفين...أردت أن نبقى قريبين من الوطن الى حيثما تنتهي الحرب فنكون أول العائدين الى ديارنا.

من بعد ما حططنا الرحال في المدينة التي اخترنا الإقامة فيها، قمت على استئجار منزل لمدة ستة أشهر عبارة عن غرفتيّ نوم وصالة، ريثما أدرس الوضع جيدًا من ناحية السكن والعمل وغيرها من مقومات

الحياة، كانت فترة تجربة لم أضع أي خطط نحو المستقبل ولم أتخذ أي قرارات مصيرية، فلا أحد يعلم إلا الخالق ماذا سيحدث وأين سنكون؟!...

عندما يكون المرء سائح في مدينةٍ ما، تكون الحياة مختلفة تمامًا فيما لو جاء وافد إليها سواء كان مهاجر أو لاجئ، فالأولى هو حتمًا يملك المال كي يجوب الأماكن السياحية لإلتقاط صور السيلفي مبتسمًا أمام المباني الأثرية، وبإمكانه القيام بزيارة المتاحف والحدائق المائية وغيرها من معالم المدينة المشهورة وهو مرتاح البال....وله مطلق الحرية في إختيار ما يأكله من وجبات مختلفة في المطاعم الفخمة، أو تناول ما يرغب من مأكولات محلية غريبة ليتذوقها من باب الفضول والشعور بالمتعة من تجربة أشياء جديدة حتى وإن لم تسد زوايا معدته، ثمّ أنه يمكنه التسكع في الأسواق لشراء بعض الهدايا التذكارية التي تحمل طابع المدينة التي زارها كي يقدمها إلى الأصدقاء عندما يعود إلى الوطن، وهو يروي لهم عن مغامراته هناك، وعن وجوه الإختلاف التي رصدها بعين السائح.

أما عندما يقرر المرء أن يصبح مقيم في مدينة غير المدينة التي ولد ونشأ فيها، وأن يختار العيش في بلد غير بلده، فهذا كلام آخر مختلف عن السابق، فعليه هنا أولًا أن يصبح ماهر في الإندماج في مجتمعه

الجديد مع الحفاظ على المبادئ السليمة، ليكون مثالًا يُحتذى به بكامل الفخر لوطنه وللدولة التي لجأ إليها، ثم يسعى لإثبات ذاته في مجتمعٍ لا يمتُّ به بأي صلة! سواء من ناحية اللغة والعادات أو من جهة طقوس الأعياد والمناسبات الرسمية، بالإضافة إلى وجوب الاطلاع على الأحكام ومعرفة القوانين التي تطبق في البلد من خلال احترام كل ما سبق... كل شيء هنا سيكون نصب عينيه وأمامه شاء أم أبى! خاصة وأن الوصول إلى الضفة الأخرى كان بشّقِ الأنفاس، وبعد رحلة شاقة استنزفت كل ما يملك من مال وغيره من مشاعر ثمينة.

هنا عليّ أن أجد عملًا أكسب منه قوت يومنا، فلم يكن أمامي سوى الانترنت لاقتحامه من أجل التفتيش عن فرصة عمل، لديّ من المؤهلات ما تجعلني موظف لا بأس في مرتبه...

صعقني خبر في إحدى المواقع الإخبارية الأجنبية، منشور فيه صفحة من جريدة بلد عربي مكتوبٌ فيها (مطلوب خادمة من الجنسية السورية) نعم! هذا ما كُتِبَ في إحدى جرائد أشقائنا العرب! لا تعليق، نحن فعلاً بحاجة إلى معجزةٍ إلهية تنقذنا من حضيض الأفكار المريضة التي ألمت بنا، هي هكذا الحرب تخلط الأوراق بشكل عشوائي ثم تقوم على توزيعها من جديد!

بعد البحث المكثف وجدت أماكن شاغرة في منظمة دولية لمساعدة اللاجئين الماكثين في المخيمات على الحدود بين البلدين، كان المطلوب فيها إجادة اللغة الإنجليزية وقبول العمل ضمن فريق... الحمد لله سارَت المقابلة على وجهٍ حسن وعُيِنتُ في المنظمة على راتب ألف دولار بشكل مبدئي، ولقد أخبروني أنه سوف يتكاثر مع الأيام المقبلة إن أثبتُّ الكفاءة في العمل.

لقد اضطر بي الأمر إلى التعامل مع أشخاص يعملون بالتزوير، كي أحوز على جواز سفر مزوّر و أوراق ثبوتية كما أرغب، حتى أستطيع الحصول على الوظيفة الجديدة، فهنا يمكنك أن تجد مكاتب للتزوير بكل سهولة وأن تكون كما تشاء من اسم، تاريخ ولادة وعنوان... تحت سقف حروف كلمة سوري.

الأحوال لم تكن عال العال، ولكنها كانت تكفي ضروريات الحياة المتوافرة، في حمل المصاريف الكبيرة من آجار ودفع فواتير مختلفة وغيرها من المستلزمات اللازمة في محل إقامتنا الجديد...

أما بيسان فقد حاولت أن تعمل بالمؤهل الجامعي الذي تحمله (أدب لغة فرنسية) في المدارس العربية المفتوحة هنا... لكن المنهاج المدرسي لم يوافقها، فاللغة الإنجليزية هي اللغة الأجنبية الثانية بالإضافة الى اللغة التركية اللغة الرئيسية.

ولقتل ساعات الفراغ التي كانت تداهم يومياتها أصبحت تُشرف على فرات وصديقاتها في المدرسة والسكن، في تحفيظ السُوَر القصيرة للقرآن الكريم (مجاناً فهي تتأمل الأجر والثواب من الله عزّ وجلّ) كم أنا فخور بك يا حبيبتي كم أنت رائعة! بيسان حاولت أن تعيد الثقة التي غابت لفترة من الوقت، ولقد نجحت في ذلك من خلال أفعالها والتصرفات التي كانت تقوم بها في أصعب مرحلة من حياتنا الانتقالية المليئة بالمفاجئات.

نظرتنا إلى الأشخاص تتغير كما هي نظرتنا إلى الحياة، وذلك بحسب المواقف التي نتعرض لها وردود الأفعال حيال تلك المواقف.

في إحدى المرات جلست بيسان بعد الدرس تحكي لنا وهي غاضبة أن الفتيات التركيات الصغيرات يقمنّ على تحويل المعنى في السور القرآنية دون قصد لصعوبة نطقهنّ وعدم مقدرتهنّ على إخراج الحروف بشكل سليم، وهي دائماً كانت تحاول تصحيح النطق مع الفتيات التركيات بصدر رحب دون أي كللٍ أو ملل...

على سبيل المثال لقد كنّ ينطقنّ حرف الحاء هاء لتتحول الحاقة إلى الهَاقة، وحرف الضاد يصبح دال للتحول بعدها كلمة الضالين إلى الدالين، بينما حرفي القاف يصبح غَين وحرف العين يتحول إلى همزة لتصبح كلمة الغارِئة بدلًا من القارعة، ولقد بلغ السوء ذروته بالقراءة

في سورة القدر، فقد قمنّ بتحويلها من أعظم ليلة في الإسلام إلى أقبح ليلة لدى الإنسان، لتكون ليلة الغدر! أستغفر الله العظيم لِمَ ذُكِر والحمد لله على نعمة اللغة العربية، اللغة التي أنزل الله تعالى بها القرآن الكريم وجعلنا من النخبة في قراءته قراءة صحيحة.

لكن وأسفاه على هذا الجيل الذي يقوم بكتابة الرسائل بين أصدقائه بالحروف الإنجليزية المصحوبة بالأرقام من أجل التواصل فيما بينهم، والتي أطلقوا عليها اسم (عربيزي أو عربي ايزي)، مساهمين بتلك العملية في تشويه أعظم لغة في التاريخ عن طريق الإهمال والتجاهل.

أما عن أمي تيريزا فقد أصرّت أن تعمل كمشرفة لإعداد المأكولات الشرقية في إحدى المطاعم السورية... أنا في البداية لم أوافق على رغبتها، لكني استسلمت لقرارها ولم أقم على رفض الفكرة فيما بعد، لقد كانت ملّحة للعمل معللة ذلك قائلة:

- ما دمت على صحة جيدة لا أستطيع الجلوس دون عمل يشعرني بالمسؤولية، والحياة مشاركة لا غنى عنها، بالإضافة إلى ذلك لا أقدر على العيش دون معاشرة الناس والإختلاط بهم، فأنت كما تعلم أنا سيدة اجتماعية لا أحب الوحدة والهدوء، عدم العمل خارج المنزل فكرة مرفوضة فلا تتعب نفسك في الأخذ والرد، كن على يقين أنه طالما تستطيع العمل فعليك أن

تعمل كي تشعر بالفخر أمام نفسك، العمل حياة يا بني، ولا أحد يفعل شيئ لا يحبه إلا إذا كان نكرة.

وبالرغم من أن معظم سكان المدينة يعتنقون الديانة الإسلامية، ونادرًا جدًا أن تلقى شخص يعتنق الديانة المسيحية، نجحت أمي تيريزا في بناء صداقات كثيرة حولها لدرجة أنه لا يستطيع أحد التمييز بينها وبين أي سيدة تركية هنا، بالإضافة إلى أنها أتقنت اللغة التركية بشكل جيد مما سهّل عليها عملية الإندماج في المجتمع التركي.

أمي تيريزا سيدة ذكية عرفت كيف تواجه التغيرات التي طرأت عليها، عبر التأقلم أولًا مع الجو الغريب المحيط حولها، ثمّ الإستفادة ثانيًا من تلك التغيرات وجعلها نمط حياة تعيشه من خلال الجهد والمثابرة، إلى أن حصلت على ما تريد بطريقة أفضل.

بشكل أو بآخر لقد اعتدنا جميعًا العيش في تلك المدينة، لأن المنطقة التي كنا نسكنها مليئة بالعائلات السورية، العراقية واليمنية النازحة من هول الحروب... حالهم من حالنا نزحوا بأجسادهم فقط بعدما تركوا أرواحهم عند الوَطن الأم، لكن مهما شاءت الأقدار أن تفرّق بيننا لم تتمكن الأشواق على امتلاك طريق العودة، ولم تنتصر الغربة في تلك المعركة التي نخوضها.

أما حلب الروح ما غابت لحظة عني، حضورها الدائم في ذاكرتي برّهن أن المثل القائل (بعيد عن العين بعيد عن القلب) عارٍ عن الصحة، ولا شيء يكسوه حتى في أشد لحظات الشعور بالسعادة، بل العكس تماماً! لقد أمسيت كالمجنون في عشقها، كل شارع هنا وكل مبنى وكل حديقة أو ساحة تذكرني بحلب، فقد جعلت لكل مكان توأم موجود هناك يملك ذات الصفات والتفاصيل! حتى قلعة المدينة تشبه قلعة حلب الشامخة، لكنها أصغر فبدت كأنها ابنتها الصغيرة وقلعة حلب هي الأم... ذاك الجناس الذي اكتشفته بين المدينتين جعلني بارع في تخطي الأيام التي غلب عليها طابع الشوق والحنين.

الشوق وحده يعلم أن للحنين أجراس تدق متى تشاء، لتوقظ فينا ذكريات حاول النسيان أن يسرح في غفوتها.

أين أنت يا صديقي عابد؟! كي ترى كيف يكون العيش في غابة الأحزان؟ كيف يكون المرء فيها صياد فاشل، يصطاد لحظات الفرح التي ما تلبث أن تفر هاربة منه بسرعة وميض البرق، ليأتي بعدها القصاص حاملًا سياط الحنين القوية التي تقوم على جلد الذاكرة تاركةً أثر ضرباتها إلى الأبد.

لحظات صعبة حين أقرر إعدام الشوق الى غير رجعة، فيأتي الصبر ليُفرِج عنه بحجّة الظروف! وأنا أعلم أن ذاك الإفراج ينجم عنه آلام

نفسية شديدة تكون أشد قسوة من الآلام الجسدية التي قد تصيبني جراء المرض، فالحنين يأتي على شكل ألم، كذلك العجز يكون ألم والقلق ألم أيضًا... والحب ألم والكراهية ألم... نحن نتألم في كل مشاعرنا لأننا رضعنا الألم مذّ كنا صغار، حتى اعتدنا عليه وكأنه تاريخ للصمود ومقياس قوة ذات قيمة باهظة!

معظمنا يتألم نفسياً دون أن يبوح أو يشتكي لأحد، واستمرار تلك الآلام تجعلنا نتحول من اسفنجة طرية ناعمة الى كتلة من الفولاذ الصلبة، تجعلنا نتجرد من المشاعر الجياشة، نرى الموت بأم العين ولا نتحرك، نسمع عن القتل ولا نصرخ، نتذوق مرارة الأيام ونبتسم لعلّ الألم يذهب بنا إلى الخلاص! الرحمة يا الرحيم، فالأرض ضاقت بما يحصل عليها وهي تستغيث مختنقة بما تحمله من ألم.

الرّيح التي تأتي من ذكريات الوطن لا تحمل أي مسكنات، بل تزيد معاناة مرور ما عشناه على صفيح ساخن يحرق الماضي بما فيه، وفي كل مرة تُعاد الكرّة إلى أن أمسى الحزن إدمان من الصعب تجاهله.

فلا يمر يوم إلا وأبث فيه ما يَختلجني من نوبات مختلفة اتجاه مسقط رأسي وجذوري...

بتّ أقول أشياء وأفعل نقيضها يا صديقي! فالكلام يبقى كلام حيث الأقوال غير الأفعال، والحقيقة غير الواقع والواقع بعيد عن الأحلام!

وهلمّ جرًّا...

بالأمس عند الظهيرة كنت أسير على رصيف الطريق المؤدي إلى جامعة المدينة، وإذ بسيارة تأتي من الخلف لتقف بجانبي وبداخلها السائق وثلاثة أشخاص، فتح السائق النافذة وأخذ يسأل باللغة التركية:

- مرحبا، هل يمكنك أن تدلني على موقع مدخل الجامعة الرئيسي؟ نحن غرباء عن المدينة.

كان مدخل الجامعة قريب، رفعت يدي وأشرت إليه بإصبعي مع كلمات بسيطة باللغة التركية، شكرني الرجل وأغلق النافذة لتبتعد عني السيارة نحو الاتجاه الذي أشرت إليه، وبينما كنت واقف أراقب حركة ابتعادها، وقع نظري على لوحة السيارة الخلفية، لقد كانت اللوحة سورية! صدمة يا صديقي أن نكون من بلد واحدة ولا يعرف بعضنا البعض!

عندما نكون غرباء تضيع منّا أشياء ثمينة، أولها الإنتماء.

قال لي أحد الزملاء في العمل الجديد:

- عندما تقرر الرحيل اغلق الباب خلفك جيدًا، فبعض الأبواب الموارِبة كفيلة بإحداث إعصار مدمر كنت تحسبه نسيم

عابر...ونصيحتي لك، لا تترك أحلامك متأرجحة بين الواقع والخيال! هيّا استيقظ، واجه الحياة بفعلك وليس بحلمك.

ثم جاءت زميلتنا الحالمة وقالت:

- لكل منا عالمان عالم يعيشه وعالم يحلم أن يعيشه، ومن الطبيعي جدًا أن يكون هذان العالمان بعيدين عن بعضهما، وقد لا يعرف أحدهما الآخر أو قد لا يعترف أحدهما بوجود الآخر... من منّا لا يحلم؟! الأحلام لا تموت يا صديقي، بل تتغير بحسب ما يعيشه المرء، الجميع يحلم ومعظم الأحلام تكون عكس الحياة الواقعية التي يعيشها أي شخص على هذا الكوكب، كل شيء قابل للتغيير فما اعتدنا عليه كل يوم قد يرحل عنّا في المستقبل، وما نحلم به اليوم سيصبح غدًا حلم آخر.

نعم، والمشكلة عندما نخوض المعارك الطاحنة في سبيل الشهادة أمام تحقيق ما نحلم به، وما نزال نخوضها كل يوم! بل في كل ساعة ولحظة مما جعل منا محاربين أشاوس لا يملكون الوقت ليقفوا أمام مرايا الحقيقة لنكشف مقدار ما مر علينا من تعرية للأخلاق.

الأحلام شيء مخيف تأخذنا إلى عالم من الصعب العودة منه، وكلما كان الحلم كبيرًا كان الطريق وعرًا وشاق!

لا أحد يحلم بالفقر ولا أحد يحلم بالجوع أو المرض معظمنا يحلم بالسعادة مهما اختلفت عناوينها.

الصغير يحلم أن يكبر والكبير يحلم بزمن الطفولة، الفقير يحلم بمنزل دافئ يأويه مع عائلته أما الغني حلمه النفوذ والسيادة، القاتل يحلم بالبراءة وأم القتيل حلمها تحقيق العدالة أو الثأر، أما الكاتب فيحلم بالشهرة بينما دار النشر تحلم بالأرباح، الشاب يحلم بالنجاح والعجوز يحلم بالشباب... حلم هنا وحلم هناك وجميعها يتطاير في فضاء الأحلام!

ليس من السهل يا صديقي عابد أن أرمي سنوات خلف ظهري، وأمضي كأن شيئًا لم يكن! ليس بتلك السهولة أبدًا أن أعيش في حالة انفصام ما بين عقلي وقلبي... الزمن وحده يعلم ما مررت به من منعطفات ويشهد عليّ عدد المرات التي وقعت فيها وأنا واقف!

ها قد مضى عامان من الهجرة وثلاثة فأربعة! ولم تتسنى لنا الظروف من أجل زيارة واحدة إلى حلب الروح، تتسرب الأيام من بين أصابعي دون أن تسقيني شربة لقاء، يبدو أنه لم يَحنْ الوقت بَعدْ كي نلتقي، فما يزال للياسمين عطراً وللحنين عناوين في دفاتر الشوق، كذلك الصبر ما يزال ماهراً في اصطياد الأماني من نهر الأحلام!

وأنا بعيد عن وطني لا أملكُ منه سوى الهوية، وما قيمتها في دولابي؟ كعروس تنتظر فارس أحلامها، ألا تعلم أنها عانس منسية! أخافُ أشيخ غريباً بلا وطنٍ، حينها ما نفع الهوية ؟؟!

في الحرب كل شيء مُباح، كل شيء يظهر ويختفي من حيث لا تحتسب، ولا أحد يفهم معنى الحرب وما يدور من خلالها حتى يخوض العراك معها، يفقد شيئاً فشيئاً ما يملكه من عباءات أخلاقية الى أن يقف أمامها عاري تمامًا، لا شيء بينهما سوى الموت، وكم من نفوسٍ تعرّت في الحرب حتى توارى الحياء خجلاً منها!

الوضع الاقتصادي والخدمي في حلب ما يزال سيء، والأخبار ذاتها التي تصلنا من تطهير وتحرير، ثمّ تطهير فَتحريروهكذا ... الى أني بتّ متأكداً أنه إذا صادف المرء الوطن عند منعطف التاريخ لن يلقي عليه السلام، فهو بحاجة له أكثر من أي أحد.

وأنا هنا في الغربة فقدت أعز صديق، لقد كان لي كل شيء في حياتي، كان الماضي الذي رافقني مع كل المواقف، وكان الحاضر الذي أحاول عيشه خطوة بخطوة، وهو المستقبل الذي سأقف عنده لأرتاح من كل مما سبق، في الغربة فقدت نفسي التي طالما كنت أنا فيها، في الغربة لم أعد أعرف أين هي؟! أين رحلت؟ ولمَ كل هذا يا صديقي؟!

ساقت بي الأيام الى حيث لا أدري!

تاه معها الكلام والآمال ضاعت

صارت مع الحروب تجري...

رحت أبوح بها للأحلام علّني أعيدها من وراء ظهري

لكن الغربة سبقتني وكانت هي نصيبي وقدري!

أيمكن أن تصبح الغربة لي وطناً مع الزمن لتغتال عمري!

بينما الوطن يمسي غريباً لا يهتم لأمري!

أعوذ بالله من هواجسك يا غربة

لن تحتلِ قلبي!

قلبي لا يتسع عاشِقَينِ.

قل يا صديقي عابد عني ما شئت، قل جبان... انتهازي وخائن لأني اخترت الهروب عن المكوث وَالمآذرة مع وطني لما يتعرض له من محنة ومؤامرة! لن أدافع عما فعلت لأني شخصياً أستهجن ما قمتُ بهِ، نادم أشد الندم على اختيار طريق ليس طريقي.

أنا منهك يا صديقي، منهك من مجرد التفكير ما بين البقاء والعودة، أعترف أني كنت متسرع في اتخاذ قرار الهجرة، وأن العشوائيات والفوضى العائمة على سطح هواجسي غطست إلى عمق أفكاري وعبثت بِالشوائب فأيقظت أسوأ ما كان خامد فيها.

نحن حالياً معلّقين على جدار الإنتظار مثل الساعات المعطلة التي هجرتها عقارب الزمن، نعيش بلا تخطيط أو هدف وما زلنا نحلم بعودة السلام لنعود الى ديارنا آملين أن نستيقظ من ذاك الكابوس المرعب، فمهما بعدنا عن الوطن تبقى أرواحنا تعانق كل ذرّة من ذرّات ترابه النفيس...

لم أعد أستطيع حمايتك يا قلب

فَقذائف القدر تتوالى والروح من زجاج.

نظرت إلى جهاز الجوّال لأَستطلع حالة الطقس لهذا الصباح، لقد كانت العواصف تزئر كالذئب في الليلة الماضية، واليوم ستقوم مبعوثة مفوضية اللاجئين بالأمم المتحدة الممثلة العالمية أنجلينا جولي بزيارة مخيم اللاجئين، لتقييم الحالة الإنسانية داخله، أما أنا سأقوم بمرافقتها في الزيارة كَمترجم لغات (عربي، تركي، انكليزي) بينها وبين اللاجئين والمشرفين والقائمين على النظام في المخيم...

مثل تلك الزيارات لا يمكن تأجيلها بحسب مزاجي أو مزاج الطقس، فأَغلب وسائل الإعلام والصحفيون وَمبعوثو الدول من كافة أنحاء العالم ينتظرون ذاك اليوم وتلك الزيارة، لذا كان لا بد من الاستعداد للانطلاق لتلك المهمة الموكل بها.

عملي داخل المنظمة جعلني أقترب أكثر من اللاجئين، وأشعر بشكل أعمق بقيمة الأرض والحضن الدافئ الذي افتقدناه بسبب طريقة التفكير العشوائية و حب الذات الطاغي على أنفسنا، والذي جعل من الأنانية وتفضيل المصالح الشخصية منهج نسير عليه في الحياة...

ازدحام شديد حول إفراد البعثة بالرغم من الأجواء السيئة، الجميع خرج من خيمته حتى يثبت وجوده بشكل أو بآخر، لكل شخص متواجد في المخيم قصة حزينة سافرت معه إلى المجهول، هناك أحداث ومواقف تحفر الذاكرة لترسم عليها ماضي من الصعب نسيانه!

ومن داخل أرض المخيم حثّت الممثلة الجميلة القوى العالمية على القيام بالمزيد من أجل إنهاء الصراع المستمر منذ خمسة سنوات في سوريا ومساعدة الملايين الذين فروا من الحرب، وقد أدلت بأنها ترغب بإجراء عملية تبنّي طفل سوري، ليتم بذلك ضمّه الى تشكيلة أطفالها الذين جمعتهم من جميع حروب العالم! ربما تحاول أن تصنع منهم مسبحة عالمية تقدمها هدية للسلام، كي يقوم في كل حبة منها على استغفار الله عن خطيئة غيابه من أوطان هؤلاء الأطفال، وهو يكرر أستغفرك يا رب على غيابي من العراق، أستغفرك يا رب على غيابي من سورية، ومن اليمن، أستغفرك يا رب على غيابي من كل بلد ومن كل بقعة موجودة على هذه الأرض...

أو ربما لَترسم من خلالهم صورة تحمل ابتساماتهم الحزينة لِتنافس بها ابتسامة الموناليزا المشهورة! وتصنع منها أعظم لوحة في تاريخ البشرية! أو لتقوم على تلقين مسقط رأس الحرب درساً في الجغرافيا بأنها استطاعت أن تجمع كل مساقط رؤوس أطفال مشردي الحرب تحت سقفٍ واحد! أو... أو....

كفى احتمالات أيتها البنات فأنا مثلكن لا أملك فكرة أو أي تفسير، سوى أنه وبكل بساطة تقوم على عمل إنساني و بادرة حسنة منها، علّها تنقل العدوى الى باقي الشخصيات المشهورة في الوسط الفني كان أو الاجتماعي لا فرق....

انتهت الزيارة بعد أن التهمت يوم كامل بكل ما فيه من أمطار وعواصف، ولم يتم الاستغناء عن التحلية أيضاً! ها أنا ذا مستلقي في مشفى حكومي ملفوف بالشاش الأبيض كقطعة مومياء أثرية من جرّاء حادث سير باغتني نتيجة سوء الأحوال الجوية حِينما كنت عائد إلى المدينة، وما إن تحررت يدي من قيود الضماد حتى انفكت هاربة مني إلى أقرب قلم لأكتب عاشت حلب.

عاشت حلب

نور شحط